كتب سياسية

السوفييت والشرق الأوسط

منذ عام ١٩٧٠

العدد الثاني

تأليف : روبرت أوين فريدمان

السوفييت والشرق الأوسط

منذ عام ١٩٧٠

تأليف : روبرت أوين فريدمان

السوفييت والشرق الاوسط

شـــهدت السنوات الاربع ما بين ١٩٧٠ ، ١٩٧٤ عددا من التغييرات والانتفاضات الكبرى فى الشرق الاوسط المتغير ، فالنزاع العربى ـ الاسرائيلى تفجـر مرة اخرى فى شهر اكتوبر ١٩٧٣ ودفـــع الولايات المتحدة والاتحاد السـوفييتى الى حافة المواجهـــة النووية ، كما ان الحرب تمخضت عن فرض حظـر بترولى ضـد الولايات المتحـدة لمدة خمسة أشـهر وتضاعفت بسببها اسعار البترول اربعـة اضعاف ، والى جانب ذلك فشل انقلاب يناصره الشيوعيون فى السودان . كذلك تحركت مصر بزعامة رئيسها انور السادات من موقف المعاداة العربية السعودية الغنية بالبترول الى موقف التحالف معهـا ، وتحركت فى الوقت ذاته من مـــوقف التحـــالف مع الاتحـــاد السوفيتى الى موقف اكثر حيادا بين الدول الكبرى بعد ان طرد الرئيس السادات القـــوات العسكرية السوفيتية وقواعدها المصرية فى شهر يوليو ١٩٧٢ .

والهدف من هذا الكتاب هو اظهار الـكيفية التى سعت بها القيادة السوفيتية للتغلب على تطـــورات الشرق الاوسط ، التى لم تكن من تدبيرها ووجدت صعوبة بالغة فى السيطرة عليها .

الفصـــل الأول

مقدمـــة

منذ موت ستالين فى عـام ١٩٥٣ والاتحاد السوفيتى يتزايد نشاطه فى شئون الشرق الاوسط ومع أن هناك اتفاقا عاما بأن الاتحاد السوفيتى يلعب الآن دورا هاما فى الشرق الاوسط فانه لا يوجد مثل هذا الاجماع فى الرأى بالنسبة لتحديد ماهية أهدافه فى المنطقة . فقد اتجـه البعض الى القول بأن غايته الاساسية غاية عدوانية وهى السيطرة على الشرق الاوسط كى يحرم الولايات المتحـدة وحلفاءها من بتروله ومن طرق مواصلاته الاستراتيجية ومن خبـــراته الاخرى . وثمة وجهة نظر معارضة لدى بعض آخـر ترى أن هدف السوفييت فى المنطقــة هــدف دفاعى بالدرجة الاولى للحيلولة بين المنطقة وبين ان تستخدم كقاعدة لشن هجوم على اتحاد الجمهـــوريات السوفيتية الاشتراكية . وهنـــاك نظـــريات أخـــرى حـــول أهـــداف الاتحـــاد السوفيتى فى المنطقـــة .. وأيا ما كان الهـدف النهـائى للسياسة السوفيتية فانه من الواضح أن القيادة السوفيتية منذ وفاة ستالين تبذل الجهد لزيادة نفوذ السوفييت فى

الشرق الأوسط ، فقد أمد الاتحاد السوفيتى عددا من دول الشرق الاوسط بكميات كبيرة من المعونة العسكرية والمساعدة الاقتصادية والتأييد الدبلوماسى فى محاولة منه للتأثير على السياسة الداخلية والخارجية لتلك الدول .

وانه من الصعب جدا أن يقيس رجال السياسة مسألة النفوذ هذه ، ولقد تعلمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى خلال العقدين الماضيين أن مجرد اعطاء المعونة العسكرية والاقتصادية ليس هو الضمان على أن الدولة المتعاملة معهما سوف تستجيب لرجاء الدول الكبرى ، ويصدق هذا بنوع خاص عندما تكون قيادة الحكم فى الدولة المتعاملة مع الدولة الكبرى بصدد الاقدام على قرارات كبرى ، وهو ما أكتشفه الروس فى تعاملهم مع دول الشرق الاوسط وبخاصة فى الفترة التى اعقبت وفاة عبد الناصر حينما وقفت تعقيدات المنطقة عائقا بصورة متزايدة فى وجه صناع السياسة السوفييتية .

وكى يفهم المرء طبيعة مسعى السوفييت الى اكتساب النفوذ فى الشرق الاوسط والعقبات التى تواجهه فى المنطقة فانه من الضرورى اولا تحليل طبيعة العلاقات بين دول هذه المنطقة وتداخل تلك العلاقات بعضها مع بعض . فان الشرق الأوسط ابعد ما يكون عن نظرية « ايزنهاور » التى وصفه بها عام ١٩٥٧ بأنها منطقة « فراغ فى القوة » وانما هى منطقة تتميز بقدر كبير من التعقيدات ومراكز للقوة والصراعات على السلطة ، وهذه التعقيدات الموجودة فى

المنطقة اتاحت لصانعي السياسة السوفييت الفرص بقدر ما اوجدت امامهم من المشاكل .

استعراض للشرق الأوسط المعاصر

ربما كان الشرق الاوسط اكثر مناطق الكرة الأرضية تعقيدا فالسنيون والشيعيون المسلمون ، والكاثوليك دالبروتستانت واليهود والاكراد والاقباط والموارنة والارمن يتعايشون معا في منطقة تتميز بعدم الاستقرار وكثرة تغير الحكومات . انها منطقة يهزها بعنف بين الحين والحين القتل بين العرب والاسرائيليين وبين العراقيين والاكراد ، وبين اللبنانيين من نصارى ومسلمين ، وبين الاردنيين والفلسطينيين وبين اليمنيين الشماليين والجنوبيين واخيرا بين الايرانيين والعراقيين . وهي منطقة فيها انماط من الحكم ففيها ديمقراطيات على مثال ديمقراطيات الغرب وفيها الملكيات الاقطاعية والديكتاتوريات العسكرية وكل هذه الانماط موجودة الى جانب عدد من أشكال الحكم الاخرى ، ويزيد من تعقيدات المنطقة اتساع صور الانظمة لاقتصادية التي تتأرجح ما بين شتى الصور من الرأسمالية الى اشتراكية الدولة . وهذه الدول تختلف فيما بينها من حيث درجة اعتناقها للاسلام وخضوعها للاستثمارات الاجنبية والملكية الخاصة للأرض والصناعة .

وعندما حاول الزعماء السوفييت تصنيف هذه الدول حسب النظريات الماركسية واجهوا مشقة بالغة الى جانب

رفض قادة هذه المنطقةمعتقدات أساسية للنظرية الماركسية مثل سيادة الطبقة العاملة والمادية الجدلية والالحاد . والحقيقة ان اقتران اسم الاتحاد السوفيتي بهوية الالحاد كان عقبة كؤودا فى مواجهة انتشار النفوذ السوفيتي فى الشرق الأوسط الذى يسوده الاسلام وحيث يلعبالدين دورا كبيرا فى الحياة اليومية .

وهناك مشكلة اخرى واجهت الزعماء السوفييت وهى ان الأحزاب الشيوعية فى بعض الجمهوريات العسكرية تظل فى حالة قمع فى ظل أنظمة الحكم الجديدة كما كان حالها فى ظل الملكيات الاقطاعية القديمة ، وكان على الروس ان يقرروا ما اذا كانوا يعطون أو لا يعطون التأييد العسكرى والاقتصادى للزعماء الوطنيين غير الشيوعيين كعبد الناصر ، الذين وان كانوا قد قمعوا الأحزاب الشيوعية فى بلادهم الا انهم اتبعوا السياسات الخارجية المناهضة للاستعمار والموالية غالبا للاتحاد السوفييتى ، وحتى بعض الأحزاب الشيوعية فى الشرق الاوسط اثبت استقلالا غير مريح عن التوجيه السوفيتى مما سبب مشكلات أخرى للزعماء الروس .

ثم ان الصراعات فى الشرق الاوسط تمثل مأزقا خطيرا للزعماء الروس ليس النزاع العربى الاسرائيلى وحده بل ان المنطقة تزخر بصراعات أخرى على درجة عالية من التوتر فالعراق وايران يعتنق زعماؤهما مذهبين مختلفين من

المذاهب الاسلامية كانتا على شفا الدخــــول في الحرب بسبب النزاع على حدود نهـــر شط العـــرب الى جانب صراعهما من أجل السلطة على الخليج وهو الصراع الذى ازدادت حدته بعد انسحاب القوات البريطانية من المنطقة عام ١٩٧١ ومما يزيد هذا الصراع ضراوة ما تدعية العــربية السعودية من حقوق فى المنطقة .

وهناك صراع آخر يتصل بالعلاقات بين سوريا وجارتيها الأردن ولبنان فقد سعت ســوريا الى السيطـــرة عليهما وادماجهما فى « سوريا الكبرى ».ثم ان العلاقات السورية التركية ظلت متوترة لوقت طويل بسبب قيام تركيا بضم لواء الاسكندرونة السورى اليها قبيل الحرب العالمية الثانية حينما كانت سوريا تخضع للانتداب الفرنسى .

ولقد كان الصراع بين مصر والعربية السعودية حــول اليمن واحدا من أوجه النزاع فيما بين العرب فى الستينات وقد هدأ هذا الصراع بعد الانسحاب المصرى من اليمن عام ٢٩٦٧ . وعلى أيةحال فقدحل محل هـــذا الصراع النـــزاع الحاد بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية الذى وصل الى مرحلة حرب الحدود وكذا حــرب العصابات التى تشجعها اليمن الجنوبية فى اقليم ظفار بعمان المجاورة .

كما يعم النزاع العلاقاتالقائمة بين الجمهوريات العربية فى الشرق الأوسط فالمنافسة التاريخية على السلطة فى المنطقة بين العراق ومصر يرجع تاريخها الى أيام البابليين

وقد دخلت سوريا والجزائر فى منافسة بالسنوات الاخيرة اذ ادعت كل منهما الحق فى زعامة العالم العربى .

ومن النزاعات الاخرى ذلك النزاع بين الجزائر والمغرب اللتين تحاربتا على الحدود فى عام ١٩٦٣ والنزاع بين العراق والكويت عندما حاولت العراق ضم الكويت اليها عام ١٩٦١ وقامت بغزوها فى عام ١٩٧٣ . ومنذ سنة ١٩٦٦ والصراع قائم من أجل السلطة فى الاردن بين الفلسطينيين ونظام الملك حسين وفى الوقت نفسه بين المنظمات الفلسطينية المختلفة التى تتصارع فيما بينها من أجل السيطرة على حركة المقاومة الفلسطينية.

ولقد ظلت هذه النزاعات عقبة كأداء فى وجه الاتحاد السوفيتى لمد نفوذه فى المنطقة كلها حيث كان وقوفه مع هذا الجانب أو ذاك يفسح له مجالا للدخول الى احدى دول المنطقة ولكن عمله هذا كان دائما معناه ابعاد الجانب الآخر ودفعه فى أحضان الغرب ، وكذلك تمكين الدولة التى تتلقى المعونة السوفيتية من ان تستغلها فيما لا يروق بالضرورة للزعامة السوفيتية . وهناك عدد من الحالات شهدت اختلافا كبيرا بين أهداف الدولة المتعاملة مع الاتحاد السوفيتى من دول المنطقة والأهداف العالمية السوفيتية . وكنتيجة لذلك فان الروس مروا بأوقات عصيبة فى محاولة انتهاج سياسة عادلة ازاء أوجه النزاع التى هى من قبيل النزاع الايرانى العراقى والنزاع بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية .. وحتى بالنسبة للنزاع العربى الاسرائيلى فانه

كان على السوفييت ان يحدوا من مساعدتهم للدول العربية خشية أن يتورط الاتحاد السوفيتى فى مواجهة معالولايات المتحدة مما يعرض للخطر المزايا الاقتصادية والاستراتيجية التى تعود على الاتحاد السوفيتى من الوفاق السوفيتى الأمريكى .

وهناك مشكلة أخرى كان على الروس أن يناقشوها وهى مسألة الوحدة العربية رغم أوجه النزاع العديدة بين الدول العربية وعدم استطاعتهم الاتفاق على الهيكل السياسى الذى يقيمون عليه وحدتهم .. والمحاولة الوحيدة الجادة للوحدة بين الدول العربية وهى الوحدة السورية المصرية لم تدم الا ثلاث سنوات « من ١٩٥٨ حتى ١٩٦١ » والاتحاد الكونفيدرالى بين مصر وليبيا وسوريا والسودان الذى تكون سنة ١٩٧٠ والاتحاد الليبى المصرى الذى انشىء عام ١٩٧٢ لم يلبثا أن انهارا . وقد كان سعى العرب الى الوحدة يواجه الزعامة السوفيتية بمعضلة اخرى أدى فى وقت من الأوقات الى مواجهة علنية بين خروشوف وعبد الناصر فان السوفيت تأرجحوا بين تأييد فكرة الوحدة العربية باعتبارها جزءا من تأكيدهم على وحدة القوى المناهضة للاستعمار فى دول العالم الثالث ومناطقه وبين معارضتها على أساس أن عالما عربيا موحدا قد يغلق الطريق فى وجه التغلغل السوفيتى فى الشرق الأوسط .

وبالاضافة الى هذه العقبات الاقليمية التى تعوق مد النفوذ السوفيتى فان الزعامة السوفيتية أقلقها أيضا العقبات غير الاقليمية وكان أولاها وأبعدها أثرا منافسة القوى الأخرى وبخاصة الولايات المتحدة التى تعارض جهود السوفيت الرامية الى تحقيق نفوذ مسيطر على الشرق الأوسط . ولقد استغلت الولايات المتحدة والصين الشيوعية هزيمة السوفيت فى السودان عقب فشل انقلاب عسكرى يناصره الشيوعيون فى يوليو ١٩٧١ والذى أدى الى تدهور حاد فى العلاقات السودانية السوفيتية فانتهزتا هذه الفرصة لتحسين علاقاتهما بحكومة نميرى التى كانت موالية للروس ذات يوم . وبالمثل عندما بدأت السياسة السوفيتية تتجه نحو العراق تحركت الولايات المتحدة لتوثيق علاقاتها بالشاه واضعاف النفوذ السوفيتى فى ايران .ومع ذلك فان أخطر ساحة بالنسبة للزعامة السوفيتية للتنافس الامريكى ـ السوفيتى على اكتساب النفوذ فى الشرق الاوسط هى مصر التى كانت وما تزال أكثر الدول العربية سكانا واقواها عسكريا ، ذلك التنافس الذى زاد زيادة حادة بعد وفاة عبد الناصر .

وفى نفس الوقت الذى كان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة هما الدولتان الرئيسيتان المتنافستان ـ من خارج المنطقة ـ لاكتساب النفوذ فى الشرق الاوسط فانه لا يمكن تجاهل نشاطات عدد من دول أوروبا الغربية ـ وبخاصة فرنسا ـ التى لها نشاط فى المنطقة ، وعلى الرغم من أن

الزعامة السوفيتية كانت سعيدة بالشقاق الذى حدث فى صفوف منظمة حلف شمالى الاطلسى بسبب الخلافات حول استراتيجية الشرق الاوسط فى حربى ١٩٥٦ و ١٩٧٣ فلا بد أنها كانت أقل سعادة ازاء تبادل الاوربيين تقديم العون الاقتصادى والعسكرى لدول الشرق الاوسط التى كان فى وسعها ان تضرب الدول الخارجية عن المنطقة بعضها ببعض، وبذلك تقلل من حجم النفوذ الذى يمكن لأى دولة كبرى أن تستخدمه ، بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى .

والنزاع الصينى السوفيتى عامل آخر يؤثر فى السياسة السوفيتية تجاه الشرق الاوسط ، ففى الوقت الذى لم تكن الصين فيه قد تورطت فى شئون الشرق الاوسط تفجر نزاعها مع الاتحاد السوفيتى فى سنة ١٩٦٩ فى عدد من اشتباكات الحدود اظهرت مطالبات الصين بأجزاء كبيرة من سيبيريا السوفيتية وزادت من احتمال اغتنام الصين الفرصة اذا ما دخل السوفييت فى حرب كبيرة فى الشرق الاوسط باقتحام سيبريا ، هذا بالاضافة الى أن الاتحاد السوفيتى ظل مهتما زمنا طويلا بالمحور الصينى الامريكى الموجه ضد اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، وزاد قلقهم بالزيارة المفاجئة التى قام بها كيسنجر لبيكين فى يوليو ١٩٧١ وما تابعها من زيارة الرئيس نيكسون فى أوائل سنة ١٩٧٢ . وهذه الاهتمامات بالتحدى الصينى أجبرت القادة السوفيت على ممارسة قدر معين من الحذر فى سياسات الشرق الاوسط خشية ان تقلع الولايات المتحدة

عن سياسة الوفاق وتتحالف اكثر مع الصين وهى التى بدت راغبة فى ظل زعامة نيكسون فى تقديم قروض طويلة الأجل للاقتصاد السوفيتى المتعب ولكن هذا بدوره كان من شأنه أن يجعل السادات يبادر بطرد القوات السوفيتية من قواعدها الاستراتيجية الهامة فى مصر فى شهر يوليو سنة ١٩٧٢ بعد مضى شهرين من اجتماع القمة الأول بين « نيكسون » و « بريجنيف » .

وهناك عامل آخر له أثره فى السياسة السوفيتية وهو مسألة الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتى الى اسرائيل فقد قررت الزعامة السوفيتية فى أواخر ١٩٧١ زيادة معدل الهجرة من ٣٠٠ الى ٣٠٠٠ مهاجر شهريا وربما كان هذا القرار بقصد التعجيل بالعلاقات التجارية السوفيتية ـ الامريكية ولكنه كان كريها بحق فى العالم العربى الذى رأى فى المهاجرين اليهود الى اسرائيل ، ومن بينهم عدد من ذوى المهارات الفنية العالية ، عنصرا يزيد من قوة اسرائيل العسكرية فى مواجهتها للعرب .

وهكذا فان الزعامة السوفيتية جابهت عقبات عدة فى سعيها لزيادة نفوذها فى الشرق الاوسط . ومما يسترعى الانتباه ان الزعماء السوفيت وكثيرا من الزعماء الغربيين ينظرون الى الشرق الاوسط على أساس ما يسميه علماء السياسة « بلعبة الصفر » وهى اللعبة التى اذا كسب فيها

احد الجانبين شيئا فان الجانب الآخر لا بد له .. أن يخسر بمقدار ما كسبه الطرف الآخر .

فاذا سلمنا بالتعقيدات المركبة للشرق الاوسط وبالعقبات التى تواجه الزعماء السوفييت فى محاولاتهم لزيادة النفوذ السوفيتى فى المنطقة فان النظرة الى السياسة السوفيتية فى الفترة الى تلت وفاة عبد الناصر ربما كانت هى خير نظرة تلقى على تلك السياسة باعتبارها فترة فرص كان ينبغى انتهازها وقد استجاب لها الزعماء السوفيت ولكنهم أقلوا فى أن يستغلوها فى براعة لاضعاف النفوذ الغربى فى الشرق الأوسط ، على انه من سوء الحظ ان اتجاه الاحداث لم يسر دائما فى اتجاه موائم للسوفييت .

ولهذا فان السياسة السوفيتية حيال الشرق الاوسط فى الفترة مابعد عام ١٩٧٠ سينظر اليها ويجرىاستعراضها باعتبارها مجموعة من ردود الأفعال للتطورات الناشئة داخل اطار الشرق الاوسط المضطرب ـ وهى التطورات التى اكتشف السوفيت انهملا يستطيعون ـ فى أغلبالاحيان ـ السيطرة عليها ولا استغلالها لمصالحهم .

الفصـــل الثـــانى

من الحرب العالمية الثانية الى وفاة عبد الناصر

منذ الحرب العالمية الثانيـــة والاتحاد السوفيتى يميل الى انتهاج سياسة معينة حيال ايران وتركيا « الحـزام الشمالى » والى انتهاج سياسة أخرى تجاه دول الشرق الاوسط حيث وجدت الزعامة السوفيتية صــعوبة فى مد النفوذ السوفيتى الى هاتين الدولتين اكثر بكثير مما وجدته بالنسبة لدول الشرق الاوسط التى ليست لها حدود مع اتحـاد الجمهـوريات السوفيتية ولا تملك خبرة طويلة فى كيفية معـالجة الاستعمار الروسى مع انهـا حقيقـة ذاقت تجربة مريرة مع الاستعمار الغربى وبخاصـة الاستعمارين البريطانى والفرنسى الذى سيطر على المنطقة من المغرب الى الخليج « الحزام الجنوبى » فى فترة ما بين الحربين .

سياســـة ســـتالين :

كانت سياسة ستالين من ١٩٤٥ ــ ١٩٥٣ ازاء الشرق الاوسط غير معقدة نسبيا ، فبعـد الحرب العـالمية الثانية مباشرة طالب الحكومة التركية بأن تتخـلى عن أجزاء فى

شرقى تركيا الى روسيا ، وبأن تمنح الاتحـــاد السوفيتى قاعدة عسكرية فى المضايق التركية .

وقد ادعى ستالين لبلاده الحق فى الوصاية على ليبيا وأخر انسحاب قوات الاحتلال السوفيتية من ايران حتى منتصف عام ١٩٤٦ . وقد أتت هذه المحاولات للتوســع الاقليمى بآثار عكسية حيث أوقعت بالحزام الشمالى فى أحضان الغرب .

وكانت الصحافة السوفيتية تطلق على زعماء ما نسميه بالعالم الثـالث أمثـال ناصر والشيشكلى ونهـرو « خدم الاستعماريين » ووصفت الجامعة العربية بأنها « أداة فى يد الاستعمار البريطانى » ويبدو ان الهـــدف من الاعتراف السوفيتى بدولة اسرائيل سنة ١٩٤٨ وتأييدها الديبلوماسى والعسكرى أثنـــاء الصراع العـــربى الاسرائيـــلى الاول « ٤٧ ـ ١٩٤٩ » كان اضعاف مركز بريطانيا فى الشرق الاوسط وحرمانها من القواعد العسكرية الرئيسية ، ولكن ذلك على أية حال لم يحسن مركز روسيا بين الدول العربية وهـــكذا كان النفـــوذ الروسى فى الحضيض فى كل مـــن الحزامين الشمالى والجنوبى بالمنطقة عنـــد وفاة ستالين سنة ١٩٥٣ .

سياسة خـــروشوف :

لم يحدث التغيير الحقيقى فى السياسة السوفيتية فى الشرق الاوسط الا بعد تولى خروشوف رئاسة الوزارة فى

شهر فبراير ١٩٥٥ لأن خروشوف لم يكن مثل ستالين تسيطر عليه النظرة الى العالم باعتباره معسكرين : معسكر شيوعى ومعسكر معاد للشيوعية ولكنه رأى أن العالم منقسم الى ثلاث كتل رئيسية : الكتلة الاشتراكية ، والكتلة الرأسمالية والعالم الثالث الذى رغب فى أن يكسبه الى جانب الشيوعية عن طريق التأييد السياسى وتقديم المعونات الاقتصادية والعسكرية . ومع هذا ، وحتى فى عملية كسب النفوذ من خلال بيع الاسلحة فان الروس أوقعوا أنفسهم فى مأزق ما يزال قائما حتى يومنا هذا ، وهو أن مجرد اعطاء الاسلحة لدول ، بغض النظر عن احتياج تلك الدولة للاسلحة ، لايوفر للدولة المانحة السيطرة على سياسات الدولة المستفيدة بل على النقيض ربما يمكنها من الاقدام على مغامرة عسكرية تعتبرها الدولة المانحة غير مرغوب فيها . وقد تيقظ الروس لهذه الحقيقة ولهذا الخطر باندلاع حملة سيناء فى سنة ١٩٥٦ . بل لقد وجدوا أنفسهم فى ورطة أخطر باندلاع حرب الايام الستة فى يونيو ١٩٦٧ حين تدفقت شحنات الاسلحة الثقيلة على مصر قبيل الصراع فى كلتا الحربين ، وكان الروس فى خطر من أن يتورطوا فى الحربين والى جانب هذه المخاطرة واجه الروس مأزقا آخر فى تعاملهم مع ناصر عندما أعلن عدم شرعية الحزب الشيوعى المصرى والقى زعماءه فى السجون ، والواقع انه اوضح بما لا يدع مجالا للشك انه يفرق بين الاتحاد

السوفيتى « كصديق عظيم » وبين الحزب الشيوعى المصرى الذى اعتبره خطرا على سلطته المطلقة .

لقد واجه خروشوف هذا الموقف فى حيرة مؤلمة ، ذلك أن ناصر كان حليفا نافعا فى الحرب الباردة ، ومع هذا فقد كان خروشوف يعتبر نفسه رأس الحركة الشيوعية الدولية وعليه حماية الاحزاب الشيوعية فى الشرق الاوسط وشكا لعبد الناصر فى مناسبات عدة من الطريقة التى يعامل بها الشيوعيون المصريون ، ولكن ناصر استنكر مثل هذا التدخل فتدهورت العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى نتيجة لذلك .

وكذلك ثبت ان دور الحزب الشيوعى كان حجر عثرة لسياسة خروشوف بالنسبة الى سوريا والعراق ايضا . ففى سنة ١٩٥٧ لاح ان سوريا ، من بين كل دول الحزام الجنوبى باتت مهيأة لان يستولى الشيوعيون فيها على السلطة ، وارسل الاتحادالسوفيتى قدرا هائلا من المعونة الاقتصادية والعسكرية الى سوريا ، وتكررت زيارات الزعماء السوريين للاتحاد السوفيتى فى تلك السنة ، ولكن عندما أوشكت سوريا أن تصبح شيوعية وقع حدث صدم الزعامة السوفيتية وخيب أملها وهو قيام اتحاد سوريا ومصر فى الجمهورية العربية المتحدة وحظر قيام الحزب الشيوعى السورى الذى كان أقوى الاحزاب الشيوعية فى العالم العربى ، حتى ذلك الحين . وقد دل هذا الحدث على

انتصار القومية العربية الذى يناصرها ناصر وعلى هزيمة الشيوعية العربية .

وصار الصراع أكثر حدة بين القومية العربية والشيوعية على أثر خلع نورى السعيد الموالى للغرب فى العراق فى يوليو ١٩٥٨ على امل دخول العراق فى الجمهورية العربية المتحدة . وما لبثت أن تكشفت الامور عن أن قاسم زعيم الحكم الجديد فى العراق يستخدم الحزب الشيوعى للتغلب على اتباع ناصر فى العراق ، وسارع السوفيت فى منح العراق كميات كبيرة من المعونة الاقتصادية والعسكرية ووقف الاتحاد السوفيتى بوضوح مناصرا لعبد الكريم قاسم فى جهوده لابقاء العراق مستقلة عن حركة الوحدة التى يتزعمها عبد الناصر .

واصطدم (خروشوف) بالزعماء المصريين فى مايو ١٩٦١ أثناء زيارة وفد برلمانى مصرى على راسه انور السادات . فقد هاجم خروشوف الزعماء المصريين لمعارضتهم للشيوعية قائلا لهم : اذا كنتم تريدون الاشتراكية فينبغى عليكم الا تعارضوا الشيوعية لأن الواحدة منهما اتت فى أعقاب الاخرى تلقائيا . كما قال للمصريين ايضا ان القومية العربية ليست قمة السعادة وان الحياة ذاتها سوف تفرض الشيوعية . وقد رد المصريون على هذا التهجم بمثله وتعرضت العلاقات المصرية السوفيتية لنكسة أخرى.

وعلى الرغم من التأييد السوفيتى لقاسم فقد برهن على أنه شخص يصعب العمل معه فقد قام بضرب الشيوعيين بالناصريين واضعف الجانبين واظهر نفسه بمظهر القوة المسيطرة فى العراق ، فما ان حلت سنة ١٩٦١ حتى كان الشيوعيون قد فقدوا آخر مركز للسلطة لهم فى حكومته وانفرد قاسم بالحكم حتى أطاحت به جماعة من ضباط الجيش المناهضين للشيوعيين سنة ١٩٦٣ ومضوا فى قتل المئات من الشيوعيين العراقيين ومطاردة الباقين منهم واضطرارهم الى الاختفاء أو النفى . على أن (خروشوف) فى هذا الوقت كان قد حول جل اهتمامه فى العالم العربى الى دولة عربية اخرى هى الجزائر ، فعلى اثر انتهاء حرب استقلال الجزائر سنة ١٩٦٢ أنشأ الاتحاد السوفيتى علاقات وثيقة مع حكم احمد بن بيللا وأمده بالمعونة الاقتصادية والعسكرية . وقد سمح لعدد من الشيوعيين الجزائريين بالاشتراك فى الحكومة مع أن الحزب نفسه بقى محظورا قيامه . وازدادت العلاقات توثقا بين الدولتين حتى أن ابن بيللا منح جائزة لينين للسلام وقلد وسام « بطل الاتحاد السوفيتى » أثناء زيارته لموسكو فى ابريل ١٩٦٤ وحصل فى نهاية هذه الزيارة على قرض كبير .

هذه التطورات التى وقعت فى الجزائر مضافا اليها تأميم ناصر لشق كبير من الصناعة المصرية فى أعقاب فصم الاتحاد مع سوريا فى خريف سنة ١٩٦١ شجعت خروشوف على الاعتقاد بأن الزعماء العرب الوطنيين أخذوا

يتجهون نحو الاشتراكية حتى بدون احزاب شيوعية . وكان خروشوف عظيم التفاؤل ويستخدم دائما عبارات : الطريق غير الراسمالية والاشتراكية كمترادفين فى وصفه لتقدم انظمة حكم مثل نظام عبد الناصر ونظام بن بيللا . وتعبير الديمقراطية الثورية كان يستخدم لوصف تلك الدول التى تتحرك على الطريق غير الراسمالية تجاه الاشتراكية بدون مساعدة حزب شيوعى .

وعندما قال خروشوف وخلفاؤه من بعده أن الحزب الشيوعى سيكون اكثر فعالية اذا عمل من خلال حكم عبد الناصر حثوا الحزب الشيوعى المصرى على أن يحل نفسه رسميا وينضم للاتحاد الاشتراكى العربى وهو التنظيم السياسى لعبد الناصر والتنظيم الوحيد المسموح به فى مصر مثلما سبق حدوثه مع جبهة التحرير الوطنى لبن بيللا التى احتل الشيوعيون فيها المراكز الرئيسية ، وادعى الزعماء السوفييت انهم بذلك سيمكنون الحزب الشيوعى السوفيتى من ان ينقل تجربته الثورية مباشرة لحكومات الحزب الواحد بالدول العربية .

وكما كان متوقعا فان عددا من الشيوعيين العرب نظروا نظرة يشوبها التشاؤم الى هذه التطورات فى الاستراتيجية السوفيتية التى راى فيها الكثيرون انها النهاية الفعلية لوجودهم السياسى

وبالاضافة الى نشاط الروس فى مصر وسوريا والعراق والجزائر ابان عهد خروشوف فانهم نشطوا كذلك فى أجزا

أخرى من العالم العربى وان يكن بدرجــة أقل حيث أعطى الاتحاد السوفيتى المعونة العسكرية والاقتصــادية للمغرب واليمن ومنح المعونة الاقتصادية لتونس والسودان كما أقام علاقات دبلوماسية مع ليبيــا والاردن ، ولــكنه فشل فى محــاولاته المتكررة لانشاء علاقات دبلوماسية مع العربيــة السعودية .

وكانت سياسة خروشوف محدودة النطاق حيال دولتى الحزام الشمالى (تركيــا وايران) لأنهما كانتــا حليفتين للولايات المتحدة وقد اتسمت العــلاقات معهما بالاعتدال قرب نهاية حكم خروشوف . فبالنسبة لايران عندما أعلن الشاه سنة ١٩٦٢ انه يسمح بوجــود صواريخ أجنبيــة فوق الاراضى الايرانية ادى ذلك الى تحسن كبير فى العلاقات السوفيتية الايرانية وقام ليونيد برجنيف بزيارة رسميــة لايران واعطى الاتحاد السوفيتى ايران قرضا مقداره ٣٨٫٩ مليون دولار فى السنة نفسها .

أما عن العلاقات التركية السوفيتية فقد كانت أكثر فتورا فى عهد خروشوف لتهديده بالدخول فى حرب ضد تركيــا سنة ١٩٥٧ بسبب ما زعمه من وجود مؤامرة تركية لغزو سوريا ، كما ان سياسة خروشوف بالنسبة لأزمة قبرص التى انطوت على تأييد موقف اليونان وتقديم معونة عسكرية لحكومة الاسقف مكاريوس القبرصية كانت حجر عثرة فى وجه التقارب بين الدولتين .

وهكذا كان مركز الاتحاد السوفيتى فى الشرق الاوسط بصفة عامة وقت سقوط خروشوف فى اكتوبر سنة ١٩٦٤ افضل بكثير عما كان عليه حين توليه السلطة . فقد سقط حلف بغداد بانسحاب العراق ونجح الروس فى انشاء علاقات ديبلوماسية مع كل الدول فى الشرق الاوسط تقريبا واعطوا الكثير منها معونات عسكرية واقتصادية .

ومع ذلك فان مركز السوفييت كان ابعد عن أن يكون مسيطرا على دول الشرق الاوسط فانه حتى فى الدول التى انفق فيها أكثر الاموال (مصر وسوريا والعراق والجزائر) ظلت الاحزاب الشيوعية محظورة وكثير من الشيوعيين فى السجون وظل الزعماء العرب لهم علاقات لا بأس بها مع دول الغرب . وكانت مكاسب السوفيت محدودة كذلك فى الحقل الايديولوجى ، فبرغم ازدياد حجم القطاع العام ونقص حجم القطاع الخاص أو الرأسمالى فى كثير من دول المنطقة وبخاصة فى مصر والجزائر الى جانب تأمين بعض الاستثمارات الاجنبية وحدوث قدر كبير من الاصلاح الزراعى فان هذه الاصلاحات قامت بها أنظمة الحكم الوطنية بمعزل ، أو فى استقلال عن الاحزاب الشيوعية فى بلادها . وخلاصة القول انه حينما سقط خروشوف فى شهر أكتوبر سنة ١٩٦٤ كان مركز السوفييت فى الشرق الأوسط أفضل بكثير مما كان عليه عند موت ستالين ، لكن الوضع كان ابعد عن أن يكون فى شكل قوة مسيطرة او سلطة راجحة . ذلك أن ايران وتركيا بقيتا حليفتين

مخلصتين للولايات المتحدة على الرغم من تحسن علاقات كل منهما بالاتحاد السوفيتى ، كما ارتفع النفوذ السوفيتى بين الدول العربية وبخاصة مصر والجزائر وسوريا والعراق ولكنه كان محدودا حيث احتفظت كل منها لنفسها بحرية التصرف واتجهت الى أن تستخلص من الاتحاد السوفيتى دعما اقتصاديا وعسكريا اكثر مما قدمته من الطاعة السياسية .

ولكن من الانصاف لخروشوف أن نشير الى ان اهتمامات الاتحاد السوفيتى لم تكن قاصرة على الشرق الاوسط بل كانت متجهة بالدرجة الاولى نحو حل مشكلات اوروبا الشرقية واوروبا الغربية والنزاع الصينى السوفيتى المتصاعد بسرعة . على أنه بوصول بريجنيف وكوسيجين الى السلطة اخذ الاهتمام السوفيتى يتركز حول الشرق الاوسط .

عهد بريجنيف وكوسيجين : (١٩٦٤ ـ ١٩٧٠) :

عندما حل الثنائى المحافظ « بريجنيف وكوسيجين » محل خروشوف المندفع النشيط أطلق المراقبون الغربيون على هذا التغيير (انتصار البيروقراطيين) ـ فعلى خلاف خروشوف الذى حاول دائبا ان ينشر النفوذ السوفيتى فى كل مكان فى العالم بدا للجميع أن بريجنيف وكوسيجين قررا تركيز الطاقات والموارد السوفيتية فى سبيل ان

يصبح الاتحاد السوفيتى الدولة المسيطـــرة فى الشرق الاوسط . وقد كان سعى الســـوفيت الى تحقيــق ذلك يتزايد وضوحا خلال عامى ١٩٦٥ و ١٩٦٦ سواء بالنسبة لدولتى الحزام الشمالى أو بالنسبة لمصر وسوريا والعراق والجـــزائر . وفى بواكيـــر سنة ١٩٦٧ كانت السياسة السوفيتية الجديدة على أشـــدها بل انه يمكن ان تعزى المسئولية عن حرب ١٩٦٧ العربية الاسرائيلية — فى جزء منها على الاقل — الى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الــذى كان يستغل النزاع العربى الاسرائيلى ليزيد نفوذه بين الدول العربية . ذلك ان الانتصار الاسرائيلى كان نكسة مؤقتـــة للروس بينما حقق هبوطا ملحوظا للنفوذ الامـــريكى فى الدول العربية الراديكالية فى المنطقة وكنتيجة لذلك ضاعف الروس من جهودهم لاخـــراج النفـــوذ الغـــربى من الدول العربية فى الوقت الذى كانوا يوطدون فيه علاقاتهم مـــع ايران وتركيا .

تحليل للموقف الدولى الجديد :

يبدو أن بريجنيف وكوسيجين عندما استعرضا مركز السوفييت فى العالم بعد توليهما الحكم فى سنة ١٩٦٤ انتهيا الى أن النفوذ السوفيتى فى امريكا اللاتينية واوربا الغربية لا يمكن تحقيق زيادة فيه — فى الوقت الراهن على الاقل — نظرا لان تلك المناطق ذات اهمية حيـــوية بالنسبة للولايات المتحدة التى أظهرت تفوقها العسكرى على الاتحـــاد

السوفيتى أثناء ازمة الصواريخ الكوبية وبالمثل فان العداء النشيط للصين الشيوعية قد جابه الروس بخطر واضح ووضع امامهم العقبات التى تحول دون بسط نفوذهم فى جنوب آسيا وجنوب شرقها ، وكان من الواضح أن الزعماء السوفييت قرروا تركيز معونتهم العسكرية والاقتصادية فى الشرق الاوسط تلك المنطقة المجاورة للاتحاد السوفيتى وفيها امكانيات أعظم للمغانم السوفيتية . وربما كان تزايد النفوذ العسكرى السوفيتى مع الدعوة الى التوسع البحرى عاملا مساعدا فى اتخاذ هذا القرار .

والعامل المساعد الثانى كان تزايد حالة عدم الاستقرار فى المنطقة ذاتها ، فهيبة عبد الناصر كانت قد بدأت تقل بسبب ما اكتنف حكمه من صعوبات اقتصادية وسياسية متزايدة ـ لم يكن فشل التدخل المصرى فى الحرب اليمنية الأهلية بأقلها ، كما وان علاقات مصر بالولايات المتحدة كانت قد بدأت فى التدهور بصورة سيئة خلال عامى ١٩٦١/١٩٦٦ بالاضافة الى أن الصراع العربى الاسرائيلى قد ازداد نحو السوء وكانت انظمة الحكم السورية والعراقية المتغيرة غير قادرة على مواجهة الصعوبات الداخلية ، وكان البريطانيون فى ضائقة مالية لا تمكنهم من الاحتفاظ بمركزهم فى عدن التى تمزقها الاضطرابات .

ومما ساعد على محاولة الروس كسب مزيد من النفوذ فى الشرق الاوسط وقوع عدد من الاحداث فى اماكن أخرى

من العالم فى عامى ١٩٦٥ / ١٩٦٦ ، وربما كان أعظم هـذه الاحداث اهميـة ذلك الرباط العسكرى فى فيتنام سـنة ١٩٦٥ فقد حققت الحرب الفيتنامية هدفا عظيما للسوفييت وهو احتواء الصين الشيوعية ، لأنه مع وجود نصف مليون جندى امريكى الى الجنوب من الصين الشعبية ، ومع وجود الهند التى تعاديها الى الجنوب الغربى منها ، ومع وجـود ثلاثين فرقة روسية على طول حدودها الشمالية فان الصين تكون حقا فى (حالة احتواء) من وجهـة النظر الروسية . وتمثلت الفائدة الثانية الكبرى للاتحاد السوفيتى فيمايسمى بثورة الصين الثقافية التى حدثت سنة ١٩٦٦ حيث ازاحت هذه الثورة الصين من المنافسة مع روسيا فى العالم الثالث وادت الى خفض النفوذ الصينى لدرجة كبيرة فى الحركة الشيوعية الدولية ، أضف الى ذلك أن الثورة الثقافية مالت الى تحويل اهتمام الصين عن الشرق الأوسط مثلما فعل التورط الامريكى فى فيتنام .

ثم كانت مكافأة أخرى للروس بقرار انسحاب بريطانيا من عدن فى فبراير سنة ١٩٦٦ فهذا القرار جعـل الروس يشعرون بأن فراغا كبيرا فى القوة اخـذ ينفتح على طول المحيط الجنوبى والشرقى لشبه الجزيرة العربية وهو فراغ يمكن أن يملأه الروس .

كذلك كان فشل السوفييت فى أماكن أخرى من العالم الثالث يزيد من حدة اندفاعهم فى الشرق الاوسط فسقوط

حكم سوكارنو فى اندونيسيا فى اكتوبر سنة ١٩٦٥ كان ضربة للروس وبعد ذلك بأربعة أشهر سقط حكم نكروما فى غانا فى فبراير سنة ١٩٦٦ . ولا بد من أن تكون هذه الاحداث قد جعلت الروس يعلون من شأن العلاقات الحسنة مع عدد من دول الشرق الاوسط وبخاصة أنظمة الحكم فى الدول العربية الراديكالية التى كانوا قد استثمروا فيها معونات اقتصادية وعسكرية ضخمة ، ويصدق هذا بنوع خاص على نظام الحكم السورى الذى استولى على السلطة بعد انقلاب فبراير ١٩٦٦ وأعلن عزمه على تنفيذ اجراءات تحول أشتراكية كبرى فى سوريا وايجاد علاقات افضل مع الاتحاد السوفيتى . وكان على الروس أن يعرفوا أن حماسهم المبدئى للنظام السورى الجديد سيصبح غالى الثمن، لأن الحكم السورى مع تشجيعه لحرب المنظمات الفلسطينية هو الذى ساعد على التعجيل بالحرب العربية الاسرائيلية فى يونيه سنة ١٩٦٧ .

مبادرات السياسة الجديدة :

كان معنى قرار بريجنيف وكوسيجين بجعل الشرق الاوسط منطقة اهتمام السوفييت الاعظم ، أن الزعماء الروس سيكون عليهم امساك ناصية الامور بالنسبة لبعض المعضلات التى تركت دون حل من عهد خروشوف وأهمها الدور الذى كان على الاحزاب الشيوعية القيام به فى الحياة السياسية والاقتصادية للدول التى تمارس نشاطها فيها ،

ولذا فان الزعماء الروس شرعوا يؤكدون أهمية تحسين علاقات روسيا بالزعماء الوطنيين في الشرق الاوسط ويتركون الاحزاب الشيوعية في المنطقة تناضل كلها من أجل بقائها .. وعن دولتي الحزام الشمالي فان روسيا تجاهلت فعلا الاحزاب الشيوعية في حين حثوا الاحزاب في الدول العربية الديمقراطية الثورية على أن تحل نفسها وان ينضم أعضاؤها لاحزاب الدولة الكبيرة في بلادهم كالاتحاد الاشتراكي العربي في مصر . وهكذا تم حل الحزب الشيوعي المصرى رسميا في ابريل ١٩٦٥ وصدرت التعليمات لاعضائه بأن يتقدموا ـ كأفراد ـ بطلبات لعضويتهم في الاتحاد الاشتراكي العربي .

ومن سوء حظ الزعماء السوفييت فان الاستراتيجية الجديدة اصطدمت بصعوبات خطيرة عندما أخرج هوارى بومدين بن بيللا من الحكم . وقد طهر بومدين الحكومة الجزائرية وجبهة التحرير الوطني من الاعضاء الشيوعيين وأعلن على الملأ ان الشيوعيين لن يكون لهم نصيب في حكومته الجديدة . ومع كل فان العلاقات الحزبية مع جبهة التحرير الوطنية اثبتت انها محرجة للاتحاد السوفيتي لأن الحزب الشيوعي الجزائري استمر بالرغم من حظر نشاطه يمارس مهماته .. لذا فان الزعماء الروس الجدد واجهوا معضلة عند سعيهم لايجاد علاقات حزبية أوثق مع الاحزاب الحكومية غير الشيوعية في الدول العربية الراديكالية ، فعندما وجهوا الدعوة لجبهة التحرير الوطنية الجزائرية

لحضور مؤتمر الحزب الشيوعى فى مارس سنة ١٩٦٦ كان عليهم أن يوجهوا الدعوة كذلك الى الحزب الشيوعى الجزائرى . وفى الوقت نفسه فان قرار حل الحزب الشيوعى فى مصر لم يؤد الى الزيادة المرجوة للنفوذ الشيوعى فى حكم عبد الناصر . فبينما منح الاعضاء السابقون للحزب المراكز الوظيفية فى وسائل الاعلام المصرى، وفى مجلس الشباب وفى وزارة التعليم بل حتى فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى الا أن السلطة بقيت فى ايدى ناصر وبطانته ولم تطرأ زيادة ملحوظة فى التشريع الاشتراكى نتيجة الوجود الشيوعى ، ولم يستطع الماركسيون تشكيل « كوادر طليعية » فى الاتحاد الاشتراكى العربى . وكان التنظيم الطليعى الوحيد داخل الاتحاد الاشتراكى العربى أشبه ما يكون بالبوليس السرى يسيطر عليه على صبرى وشعراوى جمعة . وهذا التنظيم اعتقل الشيوعيين السابقين وادخلهم السجون من آن لآخر .

وقد حدث تغيير آخر فى سياسة الاتحاد السوفيتى فى حكم بريجنيف وكوسيجين فيما يتصل باعادة النظر فى الوحدة العربية فبينما كان رأى خروشوف غامضا نحو هذه المسألة وقد عارضها من آن لآخر لأنه كان يخشى أن تكون حاجزا يحول دون انتشار النفوذ الروسى فان الزعامة الروسية الجديدة أولتها تأييدها ، فقد شرع السوفييت فى سنة ١٩٦٥ فى ايجاد تحالف من القوى المناهضة للاستعمار فى الشرق الاوسط تحت قيادة السوفييت ، ولما كانت المسألة

الوحيدة التى أستطاع العرب أن يتحدوا ازاءها هى معارضة اسرائيل فقد ربط الروس ربطا وثيقا بين النضال ضد اسرائيل والنضال ضد الاستعمار ووصموا اسرائيل بأنها « الاسفين الاستعمارى » فى الشرق الأوسط . وهذه السياسة وان كانت قد عادت على الروس ببعض الفوائد الا انه ثبت انها جرتهم أيضا الى التورط فى حرب يونيو العربية ـ الاسرائيلية سنة ١٩٦٧ والى نزاع علنى مع اسرائيل والولايات المتحدة فى يونيو سنة ١٩٧٠ .

السياسة السوفيتية تجاه الحزام الشمالى :

فى عهد بريجنيف وكوسيجين بذل السوفييت جهدا متعمدا لتحسين العلاقات مع تركيا وغيروا موقفهم حول قبرص لكسب التأييد التركى لهم وقام كوسيجين بزيارة أنقرة فى سبتمبر سنة ١٩٦٦ ، وتم الاتفاق على قرض سوفيتى مقداره ٢٠٠ مليون دولار التزم الروس بموجبه بانشاء مصنع للصلب وعدد آخر من المشروعات الصناعية. وتحسنت العلاقات السوفيتية بأسرع من ذلك مع ايران حيث قام شاه ايران بزيارة رسمية للاتحاد السوفيتى فى يوليو سنة ١٩٦٥ .وفى يناير سنة ١٩٦٦ أعطى الروس ايران قرضا مقداره ٢٨٨ر٩ مليون دولار لعدد من المشروعات الصناعية ، كما كان للاتفاقية السوفيتية ـ الايرانية التى توصلوا اليها اهمية كبيرة والتى بمقتضاها يمد الروس ايران بمبلغ ١١٠ ملايين دولار فى صورة عتاد عسكرى من

الأسلحة الصغيرة ومعدات النقل مقابل تقديم ما تحتاج اليه روسيا من الغاز الايراني . وقد مكنت حالة الوفاق السوفيتي الايراني الجديد الشاه من ان يركز اهتمامه على صراع القوة فى الخليج الفارسى ، ونظرا لارتياح الروس الى هذا التقارب قدم كوسيجين قرضا آخر عند زيارته ايران فى ابريل سنة ١٩٦٨ بلغ ٣٠٠ مليون دولار . وبحلول صيف سنة ١٩٧٠ كانت قيادة السوفيت قد وافقت على امداد دولتى الحزام الشمالى بمعونة اقتصادية لا تقل عن ٧٨٨ر٩ مليون دولار بالاضافة الى معونة عسكرية قيمتها ١١٠ ملايين دولار .

ولكن ما الذى حصل عليه الروس فى مقابل ذلك ؟ لقد تحسنت العلاقات بدرجة كبيرة مع تركيا وايران ولكنهما بقيتا داخل نطاق التحالف الغربى . كما صار فى وسع السفن السوفيتية أن تزور الموانى الايرانية فى الخليج وكذا الموانى العراقية . والحقيقة انه عندما تكشفت صراعات دول الخليج بانسحاب بريطانيا من المنطقة سنة ١٩٧١ اكتشف الروس ان ايران قد استغلت تحسن علاقاتها معهم لتحقيق اهدافها الخاصة فى المنطقة . وبالمثل فانه على الرغم من ان الروس تمتعوا بقدر اكبر من حرية المناورة فى المضايق التركية فان الاتراك ظلوا مستقلين تماما ، ويشهد بذلك رفضهم اعادة اللتوانيين الذين اختطفوا طائرة روسية فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ على الرغم من ان السوفييت بذلوا ضغطا كبيرا فى سبيل ذلك .

السياسة السوفيتية تجاه الحزام الجنوبى :

اعتبارا من سنة ١٩٦٤ بداية عهد بريجنيف وكوسيجين وحتى وفاة ناصر كانت الزعامـــة السوفيتية تجاه الدول العربية واسرائيل اكثر تعقيدا من سياستهــم تجاه ايران وتركيا ، فقد استمرت المعونة الاقتصادية والعسكرية تقوم بدور هام فى العلاقات السوفيتية العربية كما كانت الحال فى عهد خروشوف ، الا ان التأييد السوفيتى لأنظمة الحكم العربية الراديكالية ولسوريا فى المقام الاول نال أهمية أكثر فالنظام السورى الذى استولى على الحكم فى فبراير سنــة ١٩٦٦ دافع عن الحاجة الى احداث تحـــول اشتراكى فى سوريا وقيام تعاون وثيق مع الاتحاد السوفيتى ، وتقديم العون العسكرى والمادى لمنظمة فتح الفلسطينية التى بدات تشن هجماتها ضد اسرائيل مما ادى الى وضع نظام البعث السورى فى خطر من قيام سوريا بهجمات انتقـامية ممــا يكون سببا فى سقوطه . ولكى تتجنب روسيا مثل هــذا الاحتمال حثت الدول العربية الاخرى وخاصة مصر على أن تنضم الى سوريا ضد الاستعماريين واسرائيــل وكان ذلك هو موضـــوع زيارة كوسيجين الى القــاهرة فى مايو ســـنة ١٩٦٦ التى دعا خلالها لقيام جبهة متحدة من الدول العربية التقدمية مثل : الجمهورية العربية المتحدة والجزائر والعراق وسوريا لمجابهة الاستعمار والرجعية . وتبع زيارة كوسيجين للقاهرة رحلة البزاز رئيس الوزراء العــــراقى لموسكو فى

اواخر يوليو سنة ١٩٦٦ اعلنت أثناءها روسيا أنها انهت نزاعها مع الحكومة العراقية بسبب اضطهـــادها للاكراد وللحزب الشيوعى العراقى وحثت العراقيين على الانضمام لجبهة الدول الاشتراكية العربية المناهضة للاستعمار .

وفى نوفمبر ١٩٦٦ بدأ تشكيل الجبهة العربية المتحـدة عندما وقعت مصر وسوريا حلفا دفاعيا كان يأمل السوفييت فى أن يحول قيامه دون وقوع اى هجوم اسرائيلى كبير على سوريا ، الا أن الحكومة الشورية انتهزت فرصـــة التحالف لتزيد تأييدها لهجوم رجال المنظمـــات الفلسطينية على اسرائيل فمـــا أنحل ابريل سنة ١٩٦٧ حتى كانت الحدود السورية ــ الاسرائيلية ــ الاردنية ــ الاسرائيليـــة امست برميل بارود .

قرر الاسرائيليون فى ابريل ١٩٦٧ توجيه ردهم الانتقامى من هجمات الفلسطينيين الآتية من سوريا ــ الى السوريين مباشرة ، فبعد أن أطلق السوريون قذائفهم على الفلاحـين الاسرائيليين من مرتفعـات الجـولان ، هب سلاح الطيران الاسرائيلى لاسكات المدفعية السورية وقـد اسقطت سبع طائرات نفاثة سورية كانت قد صعدت لاعتراض طريقه ، وكانت هذه الهزيمة ضربة قاصمة لهيبة الحكومة السورية. أضف الى ذلك الاضطرابات التى قام بها الزعماء الدينيون المسلمون ضد حكم البعث مما جعلها على وشك السقوط .

كل ذلك دفع الروس القلقين على سقوط حليفتهـــم العربيـــة الرئيسية فى الشرق الاوسط الى نقل معـلومات

زائفة للمصريين بأن اسرائيل تدبر لشن هجـــوم كبير على سوريا . ويبدو أن عبد الناصر الذى كانت هيبته قد هبطت الى أدنى مكانة لها فى العالم العربى قد انتهز هذه الفرصة ليستعيد هيبته الضائعة وليظهر من جديد بأنه حامى حمى العرب فأمر قوات الامم المتحدة بأن تترك مواقعهـــا بين اسرائيل ومصر ، وحرك قواته الى حدود اسرائيل أضف الى ذلك أنه اغلق مضايق تيران فى وجه الملاحة الاسرائيلية ،وفى نهاية مايو وقع على حلف دفاعى مع الملك حسين ملك الاردن وعدوه السابق . وفى أعقاب تطويق اسرائيل عسكريا بدا أن الحرب أصبحت لا تبعد الا بمقدار أيام قلائل ، وفى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ قرر الاسرائيليون ضرب مصر أولا قبل أن تهاجمهم ، وخلال ستة أيام نجح الاسرائيليون أثنـــاءها فى هزيمـــة جيش مصر وسوريا والاردن والاستيلاء على شبه جزيرة سيناء وعلى القطاع الاردنى من الضفة الغربية لنهر الاردن وعلى مرتفعات الجولان فى سوريا .

وربما خالج الشعور بالأمل الزعماء العرب فى أن موقف روسيا فى ذلك الوقت معناه التأييد العسكرى للعرب اذا وقعت الحرب مع اسرائيل الا أن المعونة العسكرية السوفيتية لم تكن فى الطريق واقتصر الاجراء الوحيد من جانب الروس على قطع العلاقات الديبلوماسية مع اسرائيل ، وهو اجراء اتخذته دول الـكتلة السوفييتية الأخرى فى أوربا الشرقية (باستثناء رومانيا ويوغوســلافيا) .

هكذا هبطت هيبة السوفييت فى العالم العربى ، وفى محاولة من جانبهم للتعويض تحركوا على الفور لاعادة بناء جيش سوريا ومصر ، وقدموا الاساحة السوفيتية الى الاردن فى محاولة لجذب الملك حسين الى جانبهم . وفى نفس الوقت حاول الزعماء السوفييت أن يعتمدوا على الضعف العسكرى المتزايد للدول العربية وعلى عزلتهم الديبلوماسية لزيادة النفوذ السوفيتى فى انحاء العالم العربى فبعد أن قطعت مصر وسوريا والعراق والسودان علاقاتهم الديبلوماسية مع الولايات المتحدة وبريطانيا فى أثناء الحرب لم يعد أمامهم غير الاتحاد السوفيتى يتجهون اليه من أجل الحصول على العتاد العسكرى المتطور — وأن كان الرئيس الفرنسى ديجول قد سعى ، وهو يدين اسرائيل ، كى ينشر النفوذ الفرنسى فى الدول العربية وليحصل فى الوقت ذاته على أسواق جديدة للطائرات الميراج الفرنسية المقاتلة القاذفة التى اثبتت كفاءتها فى المعارك . وكذلك لم تكن الصين هى الاخرى متكاسلة عن التقرب الى دول المنطقة أثناء تلك الفترة فقد حول الصينيون وجهة أربع سفن محملة بالدقيق الأسترالى من الصين الى مصر ، وأعطوا مصر قرضا مقداره عشرة ملايين دولار .

وكان من نتائج حرب يونيو التى رحب بها السوفييت ذلك الحظر البترولى الذى فرضته الدول العربية على الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية . على أن التضامن

العربى بالنسبة لحظر البترول لم يكن فى الامكان الابقاء عليه، وذلك لان الدول العربية المحافظة (السعودية والكويت وليبيا) كانت تطالب بانهاء الحظر . وبالاضافة الى ذلك فان كلا من الولايات المتحدة (التى تمتلك حينئذ فائضا من البترول يمكن تصديره) وايران زادتا من انتاجهما لتعويض البترول العربى الذى انقطع ، فلم تكن أوروبا الغربية فى خطر من نفاد البترول لديها ، وتبعا لذلك فانه فى مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى الخرطوم فى شهر اغسطس سنة ١٩٦٧ وافقت الدول العربية على انهاء الحظر البترولى ووافقت الدول الغنية بالبترول وهى العربية السعودية والكويت وليبيا على أن تمد مصر والاردن بدعم سنوى لتعويضهما عن خسائر الحرب (سوريا قاطعت المؤتمر فلم يشملها الدعم) . وفى مقابل ذلك وافق ناصر على سحب القوات المصرية من اليمن . ولقد بدا فى ذلك الوقت أن موافقة عبد الناصر على سحب القوات المصرية من اليمن معناها أن القوات الملكية التى تؤيدها السعودية ستخرج منتصرة من الحرب الأهلية اليمنية الطويلة ، ولكن الاتحاد السوفيتى كى يحول دون وقوع ذلك انهمك فى عملية نقل جوى ضخمة للعتاد العسكرى الى القوات الجمهورية فى أواخر سنة ١٩٦٧ مما حال دون احراز انتصار ملكى ، ولكن الشقاق بين القوات الجمهورية انتهى الى قيام حكومة ائتلافية من الملكيين والجمهوريين والتحول غربا فى السياسة الخارجية اليمنية .

وفى عدن سارع السوفييت الى الاعتراف بالحكم الوطنى الذى تولى السلطة بعد انسحاب بريطانيا منها فى نهاية ١٩٦٧ . وفى غضون شهرين شرع الاتحاد السوفيتى فى ارسال العتاد العسكرى الى هذه الدولة ذات الموقع الاستراتيجى عند مدخل البحر الأحمر — على ان اليمن الجنوبية قاست من حرب أهلية اكتنفتها توترات قبلية الى جانب ما تعانيه نتيجة عدم تحديد الحدود مع اليمن الشمالية فى وضوح .

لقد اصبح الاتحاد السوفيتى اكبر نشاطا فى شئون جنوب شبه الجزيرة العربية بعد حرب يونيو بسبب متطلبات الموقف السياسى ولكن كل اهتمامه فى الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٠ كان يكمن فى علاقته بحكم الرئيس المصرى جمال عبد الناصر الذى أضعفته الحرب .

وفى نوفمبر ١٩٦٧ وافقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على الصيغة الغامضة للقرار البريطانى الذى اصدرته الامم المتحدة برقم ٢٤٢ ويدعو الى انسحاب اسرائيل من أرض محتلة فى مقابل حق اسرائيل للعيش فى سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها دون أن يقرر اين يجب ان تكون هذه الحدود او يحدد معنى كلمة آمنة . ونص القرار رقم ٢٤٢ أيضا على تعيين وسيط للامم المتحدة هو جونار يارنج الذى شرع فى عقد سلسلة من الاجتماعات الطويلة وغير الناجحة مع اسرائيل ومصر والاردن والتى

قبلت جميعها القرار ولكن فسره كل منهم تفسيرا مخالفا .
وكان فشل جهود يارنج فى الحصول على انسحاب اسرائيلى من شبه جزيرة سيناء سببا فى أن يبدأ عبد الناصر حربا للاستنزاف ضد اسرائيل فى ابريل ١٩٦٩ بجيشه الذى أعيد بناؤه حديثا وذلك أملا فى استخدام تفوق مصر فى المدفعية لاحداث خسائر غير مقبولة فى القوات الاسرائيلية المرابطة على طول القناة ، ولذا قــرر الاسرائيليون أن يستخدموا السلاح الوحيد الذى يتفوقون فيه تفوقا يكاد يكون مطلقا وهو سلاح طيرانهم لاسكات المدفعية المصرية ، وبعد ان قاموا بهذه المهمة شرعوا فى سلسلة من غارات التسلل فى العمق فى قلب مصر فى محــاولة لاقنــاع ناصر بالتخــلى عن حــرب الاستنزاف ، وبحلول ينـــاير سنة ١٩٧٠ كانت الطائرات الاسرائيلية تطير كما يحلو لها فى الأجـــواء الشرقية لمصر ،
وكان هذا الموقف مهينا لناصر ، فبعد أن خسر الحرب سنة ١٩٦٧ بدا الآن عاجزا عن أن يحمى عمق مصر ، وتبعا لذلك فقد طار الى موسكو فى محاولة منه لاصلاح هذا الوضــع السياسى غير المحتمل ، وطلب ناصر من القادة الســوفييت أن ينشئوا جهازا للدفاع الجوى يقوم بتشغيله الطيــارون السوفييت ، وكان الثمن الذى دفعته مصر لذلك غاليا فان عبد الناصر لكى يحصل على مساعدة السوفييت هذه المــرة منح الاتحاد السوفيتى السيطـــــرة المطلقة على عدد من المطارات المصرية والسيطرة الفعليــــة على شطر كبير من الجيش المصرى .

وقد واجهت القيادة السوفيتية موقفا صعبا فى قرارها بمساعدة المصريين فربما يكون الفشل فى مساعدة ناصر سببا فى قيام العناصر الموجودة فى القيادة المصرية والأقل ودا للاتحاد السوفيتي باخراج الرئيس المصرى من الحكم فى وقت كانت الولايات المتحدة تحاول فيه اعادة بناء مركزها فى العالم العربى . ومن ناحية اخرى فان القواعد الجوية التى سوف يشرف عليها الاتحاد السوفيتى يمكن ان يستخدمها الطيارون الروس – الى جانب اعتراض طريق الاسرائيليين فى القيام بمهام الطيران لتغطية الاسطول السوفيتى فى البحر المتوسط ، الامر الذى ينطوى على فائدة تكتيكية عظمى للقوات السوفيتية لأن الاتحاد السوفيتى لم يكن يملك فى ذلك الوقت حاملات طائرات . وكانت الحجة النهائية فى تأييد الالتزام السوفيتى لمصر هى أن ذلك سيكون اشعارا للعالم العربى بأن الاتحاد السوفيتى حليف يعتمد عليه .

وعلى الرغم من هذه المميزات الواضحة لموقف السوفييت فقد كان هناك عامل كبير ينقص من قدر هذه المميزات وهو الاثر السلمى للتدخل السوفيتى على الولايات المتحدة ، فان الدولتين العظميين كانتا حتى ذلك الوقت قد امتنعتا عن أى ارتباط كبير يتعلق بالقوات المقاتلة مع أى دولة من دول الشرق الاوسط ، أما الآن وبعد وجود قوات سوفيتية فى مصر ومع قيام طيارين سوفييت بمهام قتالية فهناك احتمال خطير بحدوث مواجهة بين الدول العظمى ،

وربما يكون للزعماء السوفييت حق فى استنتاج وجود قوات امريكية برية أو طيارين امريكيين يرابطـون فى اسرائيل . مع ان الاسرائيليين أعلنوا انهم يريدون العتاد الامريكى وحده وليس القوات الامريكية . ومع ذلك فانه لا يزال من المحتمل فى حالة حدوث مجابهة بين الاتحاد السوفيتى واسرائيـل أن تجر الولايات المتحدة الى المواجهة فى جانب الاسرائيليين . واخيرا فان الزعماء السوفييت الذين يرغبون فى عدم التخلى عن استثماراتهم الضخمة فى مصر قرروا ارسال الطيـارين والقوات المقاتلة الى مصر . ومن حسن الحظ أن موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى أعلن ان سلاح الطيران الاسرائيلى سيوقف غاراته التى تتوغل فى أعمـــاق مصر . لتجنب حدوث مواجهـــة مع الطيارين الســـوفييت مما امتص ـ مبدئيا على الأقل ـ بعض حرارة الموقف ، على انه بانتهاء شهر يونيو ومع انهاك القوات السوفيتية فى انشـــاء نظام الدفاع الجوى قرب قنـــاة الســويس ، فان الاشتباكات السوفيتية الاسرائيلية حدثت بالفعل وأسقط الاسرائيليون فى أحد الاشتباكات خمس طائرات ميج يقودهـا طيـارون سوفييت . ويضـاف الى ذلك أن الرئيس نيكسون حـذر الروس ـ علانية ـ من أن الشرق الاوسط يمكن أن يجـر الدول العظمى الى حرب مباشرة مثلما حدث سنة ١٩١٤ . وقد وافق الروس على اتفاق يقضى بوقف اطلاق النـار لمدة ٩٠ يوما (بعد مشاورات طويلة مع عبد الناصر فى موسكو) .

وعلى الرغم من المعونة التى كان عبدالناصر يتلقاها من اتحاد الجمهوريات السوفيتية فقد حاول أيضا الابقاء على بعض الروابط من الغرب فاستمر فى اعتماده على شركات البترول الامريكية فى التنقيب عن البترول فى مصر ، كما انه نصح الزعيم الليبى الجديد معمر القذافى ، الذى تولى السلطة بعد خلع الملك ادريس فى سبتمبر ٦٩ ، بأن يتجه الى فرنسا وليس الى الاتحاد السوفيتى من أجل الحصول على الاسلحة.

وبينما ازداد النفوذ السوفيتى زيادة حادة فى مصر فقد بقى محدودا تماما فى سوريا والعراق ، وعلى سبيل المثال فان الزعماء السوفييت عجزوا عن اقناع اى من السوريين او العراقيين بقبول قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ الذى أيده السوفييت أو بالتعاون مع مصر فى السعى الى تسوية سياسية لأزمة الشرق الاوسط : وكذلك فان سوريا والعراق رفضتا اتفاقية وقف اطلاق النار فى اغسطس سنة ١٩٧٠.

وفى سوريا أعاق الحزب الشيوعى السورى الجهود السوفيتية وكان الحزب قد نشط فى معارضة وزير الدفاع حافظ الاسد فى صراعه من أجل السلطة مع صلاح جديد ضابط الجيش السابق الذى كان رئيسا لحزب البعث فلم يضروا بذلك مستقبلهم فقط وانما الحقوا الضرر بالعلاقات السوفيتية لأن السفير السوفيتى نورادين مقديتوف زج به فى حلبة الصراع التى كان فيها الشيوعيون وصلاح جديد فى جانب وحافظ الاسد ــ الذى انتصر فى النهاية ــ فى الجانب الآخر . وفى مارس سنة ١٩٦٩ قام الاسد الذى

أغضبه تدخل السوفييت فى أمور السياسة السورية ، وعدم تزويده بأسلحة كافية — قام بارسال صديقه ورئيس أركان حرب الجيش السورى اللواء طلاس فى رحلة الى الصين لتدبير الحصول على أسلحة وهناك ، وربما بناء على تعليمات الاسد ، سمح بأن يصوره المصورون وهو يلوح فى يده بالكتيب الاحمر المشهور للزعيم الصينى ماوتسى تونج. وبذلك أثار طلاس حنق الروس بعد كل المساعدات السوفيتية الاقتصادية والعسكرية الى جانب التأييد الديبلوماسى لسوريا . وعلى أى حال فان الزعماء السوفييت نفضوا أيديهم من الصراع الداخلى فى سوريا عند نهاية سنة ١٩٦٩ والذى بدا من المؤكد أن الأسد سوف يكسبه .

وأما عن العلاقات السوفيتية مع العراق أثناء الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٠ فكانت أفضل قليلا منها مع سوريا على الرغم من ان الدولتين استمرتا فى الخلاف حول بعض المسائل السياسية الخاصة بالشرق الاوسط مثل القرار رقم ٢٤٢ وعلى الرغم من معاملة الحكومة العراقية للاقلية الكردية فى بلادها واضطهاد الشيوعيين العراقيين . وكانت الحكومات العراقية المتعاقبة تنظر الى رابطتها باتحاد الجمهوريات السوفييتية كأداة لموازنة علاقات العراق المتوترة مع جاراته الموالية للغرب وهى أيران والعربية السعودية والاردن وتركيا والكويت . ومن وجهة النظر السوفيتية فان نظام عارف الضعيف فى العراق كان قاعدة اخرى للنفوذ الروسى فى المنطقة ، بل ان العراق كانت أيضا مصدرا محتملا للبترول ،

وكذا لمضاعفة الكميات المتاحة للتصـــدير لدول الكتـــلة السوفيتية فى أوربا الشرقية ولعملاء العمـــلة الصعبة فى أوروبا الغربية واليابان . وحقا فان الاتحاد السوفيتى لديه احتياطى كبير من البترول والغاز الطبيعى الا ان معظم هذا الاحتياطى يقع فى الاصقاع المتجمـدة فى شرقى سيبريا وفى غربها ويتطلب استثمارات كبيرة قبل أن يمكن الانتفاع به ، ولذلك فان الاتحاد السوفيتى وقع مع العراق فى ديسمبر سنة ١٩٦٧ اتفاقية لمد العراق بالقروض والاجهزة اللازمـة لاستغلال حقول البترول فى الرميلة على أن تسدد جزءا من هذه القروض للاتحاد السوفيتى بالبترول الخام . وفى نفس السنة وقع الاتحاد السوفيتى كذلك اتفاقيات طويلة الاجـل مع افغانستان لاستيراد الغاز الطبيعى منها ، ومع ايـران ايضا لاستيراد البترول والغاز الطبيعى بها — وذلك لأن الاتحاد السوفيتى بدأ يفكر فى أنه يمكن انيستورد البترول والغـاز الطبيعى من الشرق الاوسط لخدمة الصناعات فى الاجزاء الجنوبية منه ويبيـــع البترول والغـــاز الطبيعى السوفيتى لاوروبا الشرقية والغربية بشقيها .

ولم يكن لتولى البكر السلطة فى العراق فى يوليو ١٩٦٨ أثر كبير على العلاقات السوفيتية العراقية وهى العلاقة التى استمرت على خير ما يـرام ، ومـــع كل فقد رات القيادة السوفيتية ان العـــلاقات مع حكومـــة البكر أكثـــر من مرضـــية ، لأنه فى يوليـــو ١٩٦٩ تم التوقيـــع على اتفاقيـــة بترولـيـة أخرى طـويلة الاجـــل بين البلدين

لاستغلال حقول بترول شمال شمالي الرميلة وعلى الرغم من توصـــل البلدين الى الاتفـــاق على اســـتغلال الزيت فانهما بقيتا منقسمتين بالنسبة للسياسة أزاء النزاع العربى الاسرائيلى ، ذلك ان العراق عارضت اتفاقية وقف أطلاق النار المعقودة فى أغسطس سنة ١٩٧٠ ، وحتى بعد أن سافر وفد عراقى الى موسكو لاجراء محادثات هناك فانه لم يحدث تغير فى موقف بغداد ، وعلى الرغم من المعارضة العراقيـــة فان الروس لم يمارسوا أى ضغط على القيـادة العراقية بل انهم وقعوا على بروتوكول للتجـارة والتعاون الاقتصادى مع العراقيين فى ١٣ من أغسطس عام ١٩٧٠ دعا الى زيادة فى التجارة والمعونة الســوفيتية ، تم منح الروس العراقيين قرضا مقداره ٣٤ مليون دولار . وهــذا يدل فى وضوح على رغبة الروس فى الاحتفاظ بعلاقات حسنة مع هذه الدولة الغنية بالبترول وذات الموقع الاستراتيجى التى أصبحت المنـــافس الرئيسى لمصر فى العالم العربى .

وفى الوقت الذى نشط فيه الاتحاد السوفيتى فى بذل جهوده لاخراج النفوذ الغربى من الشرق الاوسط فى أعقاب حرب يونيو فان التطورات التى حدثت فى الدول العربيـــة الواقعة شمال أفريقيا بدا انها تلائمهم تماما . ففى ليبيا أطيح بحكم الملك ادريس الموالى للغرب فى شهر سبتمبر سنة ٦٩ بواسطة شرذمة عسكرية يرأســها معمـــر القـــذافى ، وكان أول مطلب رئيسى لهـــا فى السياسة الخارجيـــة أن طالبت الولايات المتحدة وبريطانيا بمغادرة القـواعد العسكرية فى

ليبيا ـ وقد اذعنت الدولتان لهـذا المطلب . وفى الجزائر أدى قرار بومدين بتأميم صناعة البترول المملوكة للفرنسيين الى انسحاب الفنيين الفرنسيين ، وعلى الفور أرسل الاتحاد السوفييتى بعثة فنية كى تحل محلهم . على انه مما يجـدر بالذكر فانه فى حالتى ليبيا والجزائر فان الخطـوات التى اقدمت عليها الانظمة الوطنية لتقليل النفوذ الغربى فى بلادها لم يكن معناها انها فتحت الباب للسيطرة السوفيتية .

وكان السودان من البلاد التى ظهر أن الاتحاد السوفيتى يتوغل فيها توغلا عميقا ، فعلى أثر انقـلاب عسكرى فى شهر مايو سنة ١٩٦٩ تولى جعفر نميرى السلطة فى البلاد وأعلن ان السودان جمهـورية ديمقراطية وحدد المعالم الرئيسية لأهداف السياسة الخارجية لحكومته على انهـا تأييد حركات التحرر الوطنى فى مواجهة الاستعمار والتأييد الايجابى للنضال الفلسطينى و التوسع فى الروابط السودانية مع العالم العربى والدول الاشتراكية. ومن الناحية الداخلية اعلن نميرى تكوين حزب واحد (من العمـال والفلاحين والجنـود والراسمالية الوطنيـة والمثقفين التقـدميين) ؛ وكان الشيوعيون ممثلين بشكل ظاهر فى أول وزارة لنميرى، وذلك على الرغم من أن الحزب الشـيوعى ، شأنه فى ذلك شأن كل الاحزاب الاخرى ، كان قد حل رسميا . ولم تضيع الزعامة السوفيتية وقتا طويلا فعملت على تدعيم عـلاقاتها بحكم جعفر نميرى ، وتم التوقيع على اتفاقيات للتوسع فى التجارة والتعاون الثقـافى والعلمى . وعندمـا تحسنت

العلاقات السوفييتية السودانية قرر الزعماء السوفييت ـ كى يتجنبوا احتمال حدوث تعقيدات فى المستقبل ـ حل الحزب الشيوعى السودانى القوى وانضمام أعضائه الى حزب جعفر نميرى كما سبق أن فعل الحزب الشيوعى المصرى ، الا أن الحزب الشيوعى السودانى انقسم على نفسه ورفض الفريق الذى يتزعمه المحجوب الاذعان لرجاء السوفييت .

ولقد ظهر مع تطورات الموقف فى السودان ان جعفر نميرى كان يستخدم الشيوعيين السودانيين لاضعاف أعدائهم من الجناح اليمينى وهم المهديون ، وما أن قضى على المهديين كقوة سياسية حتى اعتقل محجوب ثم نفاه ، هذا بينما ظل الفريق المناهض لمحجوب فى الحكم من الشيوعيين متحالفا مع نميرى الذى تعلم من درس عبد الكريم قاسم فى العراق أن يضرب بالشيوعيين القوى السياسية الاخرى ، وان مستقبل الحزب الشيوعى فى السودان بات محدودا بالفعل .

هذا الجو الذى ساد العالم العربى وأضعف من النفوذ الغربى أوجد فى نفس الوقت أرضا خصبة لنمو حركة المقاومة الفلسطينية ، حتى ان منظمات المقاومة شرعت فى التنافس النشيط فيما بينها من أجل تجنيد الرجال والحصول على الاعتمادات المالية والنفوذ ، وفى الوقت ذاته تزايد تحديها لحكومات العالم العربى الشرعية ، وخاصة حكومتى الاردن ولبنان فقد كان فيهما اعداد كبيرة من

اللاجئين الفلسطينيين . وبينما قللت القيادة السوفيتية في بادىء الأمر من أهمية هذه المنظمات الا انهم لم يستطيعوا طويلا تجاهل القوة المتزايدة لحركاتها كعنصر مؤثر في سياسات الشرق الاوسط أو تزايد تورط الصين الشيوعية في حركة المقاومة ، لأن الصينيين بتزويدهم عددا من المنظمات بالعتاد العسكرى والتدريب الايديولوجى كانوا يسعون الى زيادة نفوذهم فى الشرق الاوسط من خلال هذه المنظمات . وفى منتصف سنة ١٩٦٩ وضح ان القيادة السوفيتية قررت العمل مع هذه المنظمات ، ولكن بأسلوب حذر .

وفى المؤتمر السابع لاتحاد نقابات العمال العالمى فى بودابست فى أكتوبر ١٩٦٩ أعلن الكسندر شلبين عضو المكتب السياسى ان السوفييت يعتبرون نضال الوطنيين الفلسطينيين لتصفية آثار العدوان الاسرائيلى نضال تحرير وطنى عادل مناهض للاستعمار ويؤيدونه .

على انه فى نهاية سنة ١٩٦٩ بدأت القيادة السوفييتية ـ وقد رأت ان الصدامات مع الفلسطينيين قد هزت الحكومتين اللبنانية والاردنية ـ تنظر الى الحركة الفلسطينية كأداة نافعة لاضعاف الحكومتين المواليتين للغرب أو حتى للاطاحة بهما واحلال حكومات اكثر موالاة للاتحاد السوفييتى .

وفى فبراير سنة ١٩٧٠ تلقى ياسر عرفات الدعوة لزيارة موسكو ، على أن عرفات ما لبث أن حظى باستقبال على

مستوى عال فى بكين فى الشهر التالى مباشرة .. ولما ازداد التنافس الصينى السوفيتى من أجل ولاء المنظمات الفلسطينية قررت الزعامة السوفيتية تكوين منظمة خاصة بها للفلسطينيين تكون قادرة على أن تشارك منظمة التحرير الفلسطينية . وتبعا لذلك فان الاحزاب الشيوعية فى لبنان وسوريا والاردن والعراق كونت منظمة الانصار الخاصة بالفلسطينيين فى مارس سنة ١٩٧٠ غير انه كان لها تأثير قليل جدا فى حركة المنظمات .

ومن المشكلات الرئيسية التى تعانى منها منظمة التحرير الفلسطينية التنافس البالغ منتهى الحدة من أجل السلطة بين منظماتها فبعضها كانت تجاهر بأنها ماركسية مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين . وأما العصابات الاخرى فانها أدوات فى أيدى الحكومات العربية مثل الصاعقة (فى سوريا) . جبهة التحرير العربية (فى العراق) .

وهناك منظمات أخرى مثل منظمة فتح تعلن عن نفسها بأنها محايدة من الناحية الايديولوجية وترغب فى قبول المساعدات من كل ناحية . وفى شهر يونيو سنة ١٩٧٠ كان الصراع بين الفلسطينيين فى سبيل السلطة قد وصل ذروته . ففى ذلك الوقت كان الفلسطينيون كونوا بالفعل دولة داخل الدولة فى الاردن . وعندما قبل الملك حسين

اتفاقية وقف اطلاق النار التى تبناها الامريكيون وايدتها مصر واسرائيل شعرت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بأن الوقت قد حان لاسقاط حكم الملك حسين فقامت باختطاف ثلاث طائرات للركاب الى قطاع تسيطر عليه فى شمالى الاردن وحطمتها بينما وقفت قوات الملك حسين التى احاطت بالقطاع تنظر اليها ولا حول لها ولا قوة .

انتهز حسين هذه الفرصة لوضع حد لتهديد المنظمات الفلسطينية فأخذ يشن الهجمات العسكرية عليها واثناء ذلك قامت سوريا ـ التى كان يرأسها صلاح جديد ـ بارسال لواء مصفح لمساعدة الفلسطينيين ، وعند هذا المنعطف حركت الولايات المتحدة الاسطول السادس فى اتجاه منطقة المعركة وهددت اسرائيل بالتدخل اذا لم تنسحب القوات السورية ، كما ألمح كل من كيسنجر ونيكسون الى انهما لن يسمحا باخراج حكم الملك حسين الموالى للغرب نتيجة غزو دولة عميلة للاتحاد السوفيتى . وقد عاب الزعامة السوفيتية خلال تلك الفترة عدم التصرف ولهذا السبب أو بسبب الموقف الامريكى الاسرائيلى الصلب ، أو ربما لأن الاسد وجدها فرصة سانحة لاخراج صلاح جديد من الحكم السورى فقد رفض الاسد ارسال القاذفات النفاثة للقيام بطلعات لتغطية الدبابات السورية ، وكانت النتيجة قيام سلاح الطيران ووحدات الدبابات الاردنية بدق وحدات الجيش السورى التى تقهقرت الى سوريا بغير نظام . وهذا شجع الملك حسين فتحول للقضاء على

الفلسطينيين ، وكان قد استكمل هذه المهمة تقريبا ، عندما صار وقف اطلاق النار الذى رتبه ناصر من خلال الجامعة العربية نافذ المفعول . وشاء القدر ان يكون ذلك آخر عمل للرئيس المصرى بوصفه زعيما عربيا ، لأنه توفى فى اليوم التالى مباشرة اثر نوبة قلبية .

وضع السوفييت فى الشرق الاوسط وقت وفاة عبد الناصر :

عند تقييم الوضع السوفييتى فى الشرق الاوسط نجد ان الموقف العسكرى السوفيتى قد تحسن فى المنطقة منذ خروج خروشوف من الحكم، فقد اكتسب الاتحاد السوفيتى قواعد جوية وبحرية فى مصر وكذلك حق الرسو فى موانى سوريا والسودان واليمن الجنوبية والعراق ، الا ان الوجود العسكرى الواسع للسوفييت انطوى على مخاطرة كبرى فقد كان هناك عدد من العرب يريدون ان يورطوا الاتحاد السوفيتى فى حرب ضد اسرائيل . ويبدو أن أحد الاسباب التى من أجلها قبل الاتحاد السوفيتى المبادرة الامريكية لوقف اطلاق النار فى صيف سنة ١٩٧٠ هو رغبته فى تهدئة نزاعه المتصاعد فى سرعة مع اسرائيل والذى كان من الممكن أن يشمل الولايات المتحدة ايضا .

والسؤال الواضح هو : من الذى كان يستغل الآخر ، مع ان النفوذ السوفيتى لم يستطع الوصول الى وضع السيطرة على سياسات أى من أنظمة الحكم فى المنطقة ؟

وثمة مشكلة اكثر خطورة بالنسبة للاتحاد السوفيتى وقت وفاة عبد الناصر ، وهى ظهور الولايات المتحدة مرة ثانية كعنصر فعال فى سياسات الشرق الاوسط : فى اتفاقية وقف اطلاق النار فى اغسطس سنة ١٩٧٠ ، وفى مشروع روجرز الذى أعلن فى ديسمبر سنة ١٩٦٩ ، وفى التأييد الامريكى القوى لحكم الملك حسين فى سبتمبر ١٩٧٠ الذى ساعد على استعادة قدر كبير من النفوذ الامريكى فى الاردن ولبنان .

ومما هو أكثر أهمية الانطباع الذى خلفته فى العالم العربى البيانات والتصريحات الامريكية عن انتهاج سياسة عادلة فى الشرق الاوسط ، وان الولايات المتحدة قد تكون راغبة فى مساعدة الدول العربية فى استعادتها لجزء ــ على الاقل ــ ان لم يكن الكل من الاراضى العربية التى استولت عليها اسرائيل فى سنة ١٩٦٧ ، وهو ماكان الاتحاد السوفيتى عاجزا عن فعله بالطرق الديبلوماسية .

وهكذا فان شبح النفوذ الامريكى الآخذ فى الصعود فى الشرق الأوسط وعدم الاتحاد بين الدول العربية العميلة للاتحاد السوفيتى كانتا المشكلتين اللتين تجابهان الزعامة السوفيتية فى الوقت الذى رحل فيه جمال عبد الناصر عن مسرح الأحداث ، وهو الرجل الذى دارت من حوله الاستراتيجية السوفيتية فى الشرق الاوسط .

الفصـــل الثـــالث

من وفاة عبد الناصر حتى خروج السوفييت من مصر

كانت أهم سمة لوفاة عبد الناصر ـ من وجهة نظـــر السوفييت ـ انها أزاحت عن مصر الرجـــل الذى بلغت درجة احساسه بالاهانة على أيدى الاسرائيليين حدا جعله على استعداد للتخلى عن جانب كبير مـــن سيادة مصر فى محاولة للانتقام لهذه الاهانة . وكان واضحـــا أن الروس يخشون من أن يكون خليفة عبد الناصر ـ الذى لا تقيـــده أخطاؤه ـ شخصا أكثر استقلالا قد يتجه نحـــو الولايات المتحدة طالبا العون . ونتيجة لهذا جاء كوسيجين على رأس وفد سوفيتى كبير لحضور جنازة عبد الناصر ، وبقى فى القاهرة عدة أيام أمضاها فى اجتماعات مع القيادة المصرية الجديدة برئاسة أنور السادات الذىكان قائما بأعمال رئيس الجمهورية .

وجاء فى البيان الذى صدر عقب الزيارة تأييد استمرار التعاون المصرى السوفيتى ، كما دعا البيان الى وحدة العمل بين جميع الدول العربية على أساس معاداة الامبـــريالية ، باعتباره الطريق الذى يمكن العرب من تحقيق النجـــاح فى

« كفاحهم العادل من أجل التقدم والاستقلال الوطنى ، وايجاد حل عاجل للنزاع فى الشرق الاوسط » .

وبعد أن تولى السادات الرئاسة واكتسبت رياسته الصفة الشرعية بعد الاستفتاء العام عليه كتب فيكتور كودريا فستيف فى صحيفة « نيو تايمز » : « قضى التماسك السياسى فى الجمهورية العربية المتحدة على آمال أولئك الذين كانوا يعتقدون أن القاهرة بعد وفاة عبد الناصر لن تكون قادرة على أن تلعب الدور الهام والفعال الذى كانت تقوم به فى الشرق الاوسط ، لهذا فان نتائج الاستفتاء كانت بمثابة نجاح كبير لا للشعب المصرى فحسب بل ولجميع الشعوب العربية التى ترى فى الجمهورية العربية المتحدة دولة تسهم اسهاما كبيرا فى كفاحها المشترك ضد العدوان الامبريالى » .

ومع ذلك فقد ثبت ، لسوء حظ الروس ، أن التعامل مع السادات أصعب كثيرا عنه مع عبد الناصر .

كما واجه الروس أيضا تغييرا فى الحكومات فى كل من العراق وسوريا عقب وفاة عبد الناصر ، ففى العراق أطيح بحردان التكريتى أحد نواب رئيس الجمهورية ، ويبدو أن هذا كان بسبب عدم قيام القوات العراقية المتمركزة فى الأردن بمساعدة الفدائيين الفلسطينيين فى حربهم ضد قوات الملك حسين . وحدث انقلاب فى سوريا حيث أطيح بالزعماء البعثيين الموالين للروس بزعامة صلاح جديد على

يد وزير الدفاع آنذاك حافظ الاسد الذى سبق واختلف مع الروس فى الماضى .

وعندما ووجه الزعماء السوفييت بهذه التغييرات الهامة داخل الدول العربية اتبعوا فى الشرق الاوسط سياسة « الانتظار الحذر » خلال الشهور الخمسة الاولى التالية لوفاة عبد الناصر ، فاستمروا فى تأييد مبدأ ايجاد تسوية بين العرب واسرائيل على أساس قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ . واخذت السياسة السوفيتية فى تلك الفترة تركز على دعم العلاقات مع اوضاع الحكم الجديدة بدلا من التقدم بمبادرات سياسية أخرى . وكانت هناك رحلات كثيرة بين موسكو والقاهرة من أهمها الزيارة التى قام بها نائب رئيس الجمهورية المصرى للاتحاد السوفيتى فى ديسمبر سنة ٧٠ والزيارة التى قام بها فى الشهر التالى نيكولاى بودجورنى الرئيس السوفيتى لمصر احتفالا بافتتاح السد العالى ، ثم الزيارة التى قام بها الرئيس السادات لموسكو فى أوائل مارس بعد توقف محادثات يارنج . كذلك كان الزعيم السورى الجديد حافظ الاسد ضيفا على الروس عندما قام فى أوائل فبراير بزيارة رسمية لموسكو — ويبدو أن الزعماء السوفييت عدلوا عن رأيهم السابق فيه وبداوا يقيمون معه علاقة عمل حيث يبدو أنه تبينت له المزايا التى تحققهـا المحافظة على الروابط الاقتصادية والعسكرية بين سوريا والاتحاد السوفيتى . وخلال تلك الفترة ايضا جرى تبادل الزيارة بين الوفود السوفيتية والعراقية اذ كان السوفييت يعملون

على تقوية العلاقات مع نظام الرئيس البكر . ويضاف الى هذا أن وفدا سوفيتيا قام بزيارة للخرطوم فى محاولة ــ ثبت فشلها ــ لتسوية الخلاف بين الحكومة والحزب الشيوعي السوداني . وخلال هذه الفترة أيضا بدأ الروس يصدرون الصحيفة العسكرية السوفيتية « سوفييت ميليتارى ريفيو » باللغة العربية في محاولة تلقين الضباط العرب التكتيكات السوفيتية وأصول الايديولوجية السوفيتية . وأخيرا بدأت مفاوضات بين الاتحاد السوفيتي وحكومة لبنان . وكانت هذه المفاوضات بناء على طلب الحكومة اللبنانية .

وبعودة الاستقرار الى العالم العربى كان هناك اتجاه جديد نحو الوحدة تمثل فى الاتحاد الفيدرالى الذى كان مقترحا بين مصر وليبيا والسودان ، والذى بدأت الدعوة اليه في ديسمبر ١٩٦٩ ، ثم انضمت اليه سوريا فى ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩٧٠ . ولقد وافق الروس على قرار سوريا بالانضمام الى الاتحاد لان الخلاف بين مصر وسوريا يمثل عقبة من العقبات الأساسية فى سبيل قيام الوحدة التى تؤيدها روسيا .

وفى نفس الوقت حرص السوفييت على علاقات طيبة مع العراق الذي كان الخصم الرئيسى الذى ينتقد بشدة الاتحاد المقترح .

وفى اوائل شهر ابريل بدا أن الاتحاد السوفييتى نجح فى اعادة تقوية موقفه فى العالم العربى.ومن ثم ففى الوقت

الذى انعقد فيه المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفييتى كان الاتحاد السوفييتى لم ينجح فقط فى التعايش مع التغييرات التى حدثت فى المنطقة وانما تمكن من تحسين علاقاته بكل دولة من الدول العربية ، لهـــذا لم تر القيادة السوفييتية ان هناك حاجة كبيرة الى تغيير سياستها تجاه نظم الحكم العربية والقومية وتجاه الاحزاب الشيوعية بالرغم من استمرار اضطهاد الشيوعيين العرب الذى تزايدت حدته فى كل من العراق والسودان .

انقلاب الســــودان :

عندما وصل الاتحاد الفيدرالى العربى الى مراحله النهائية باجتماع رؤساء دول الاتحاد فى القاهرة يوم ١٣ من ابريل سنة ١٩٧١ ظهرت بعض الصعوبات المتمثلة فى معارضـــة جماعة محجوب فى الحزب الشيوعى السودانى لهذا الاتحاد، واضطر نميرى الى ترك محادثات القاهرة للسفر الى موسكو حتى تضغط عـــلى الشيوعيين كى يتخلوا عن معارضتهم لاشتراك السودان فى الاتحاد ، ولكن يبــدو أن الروس لم يكونوا قادرين او لم يكونوا راغبين فى ممارسة هذا الضغط وكانت النتيجة انسحاب السودان من محادثات القاهرة دون التوقيع على الاتفاق المبدئى الذى وقع فى القاهــرة يوم ١٧ من ابريل سنة ١٩٧١ وجاء فى الاعلان المشترك الذى صدر عن الاتحاد فى ذلك الوقت : « ان جمهـــورية الســــودان الديمقراطية وشعبها العربى المناضل ، الذى أسهم — تحت

قيادة الرئيس جعفر نميري واشقائه أعضاء مجلس قيادة الثورة ــ بجدية فعالة في تطوير العمـــل في اطار ميثاق طرابلس ، ستظل نشطة في النضال الوحدوي وستظل على اتصال وثيق باتحاد الجمهوريات العربية الى ان تتمكن من الانضمام » .

وفي ٢٥ من ابريل سنة ١٩٧١ أوضحت برافـدا ان القيادة السوفيتية كانت تأمل في استخدام الاتحـاد كأداة لاضعاف النفوذ الغربي . ولكن بعد أقل من اربعة شهور اتخذ الروس موقفا مختلفا تماما من الاتحاد الذي أظهر فجأة ميولا معادية للسوفييت لا معاديا للغرب .

وبينما كان الشيوعيون السودانيون يعارضون الاتحـاد كانت هناك كذلك معارضة قوية له في مصر حيث استغـل على صبري ــ في مزايدة واضحة ــ موضوع اشتراك مصر في الاتحاد كفرصة لاحداث متاعب وصراع في الداخل . لكن الرئيس السادات اثبت انه سياسي محنك حين نجح في اقصاء على صبري من منصبه كنائب لرئيس الجمهورية يوم ٢ مايو سنة ١٩٧١ أي قبل ثلاثة ايام من وصـول روجرز وزير خارجية امريكا الى القاهرة ولذا فسر البعض اقـالة على صبري بانها ايماءة إلى قدوم روجـرز وعـلامة على استعداد مصر للتقارب مع الولايات المتحدة والتباعد عـن الاتحاد السوفييتي اذا قامت الولايات المتحدة ببذل الضغط الضروري على اسرائيل .

وسواء كانت هذه التفسيرات صحيحة أم لا فقد تزايدت هذه التوقعات عندما اتبع الرئيس السادات اقالة علي صبري بابعاد جميع معاونيه يوم ١٤ مايو سنة ١٩٧١ ومنهم شعراوي جمعة الذي قيل انه هو ايضا كان على اتصال بالسوفييت باعتباره على رأس البوليس المصري . وهناك من توقعوا أن هذه اشارة الى الولايات المتحدة لتحسين علاقتها بمصر ولكنها حقيقة جعلت الرئيس السادات في موقف أقوى كثيرا أمام الاتحاد السوفيتي حيث أصبح تأليب بعض القيادات المصرية ضده صعبا على القادة السوفييت اكثر من ذي قبل . ومن الواضح ان التغييرات الحكومية في مصر قد ضايقت الروس كثيرا بالرغم من انه ثبت عدم قدرتهم على فعل شيء تجاهها .

حقا لقد انزعج الروس وحاروا . فبعد حركة التطهير التي قام بها الرئيس السادات بأسبوع واحد قام بودجورني بزيارة لمصر نتج عنها توقيع معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية التي كانت قيد البحث لسنوات عديدة ... وكانت هناك تكهنات كثيرة بشأن هذه الاتفاقية في ذلك الوقت مع أن اثر هذه المعاهدة كان اقل اهمية بكثير ، فقد كانت مجرد تقنين للعلاقات السوفيتية المصرية التي كانت قائمة بالفعل. فلم يلتزم المصريون بأكثر من الموافقة على التشاور بانتظام مع الروس ، وهو أمر كانوا يقومون به بالفعل ، والموافقة على عدم الدخول في تحالف معاد للاتحاد السوفيتي ، ولم يكن محتملا أن يفعلوا ذلك ، كذلك كان الروس بدورهم

شديدى الاهتمام بالحد من تورطهم العسكرى . وربما كانت أهمية المعاهدة بالنسبة للروس هى كما قال بودجورنى فى حفل العشاء الذى اقيم بعد ابرام المعاهدة : « تكمن أهمية المعاهدة بين الاتحاد السوفيتى والجمهورية العربية المتحدة فى أنها ضربة جديدة لمخططات الامبريالية العالمية التى تحاول كل طريقة ممكنة دق اسفين فى العلاقات بين بلدينا بهدف اضعاف صداقتنا وبث الفرقة بين الدول التقدمية » .

لكن الخطاب الذى القاه الرئيس السادات ردا على بودجورنى كان يحمل نغمة ومضمونا مختلفين تماما اذ قال :

« ان أهم شيء هو انكم اظهرتم تفهما فى جميع الظروف ، ونحن نقدر هذا قبل كل شيء . ونشعر ان التفهم الحقيقى يجب أن يكون هو المعيار عند تقييم أى موقف ، فعندما يتفهم كل منا معنى كفاح الطرف الآخر ومهامه ، وعندما يفهم كل منا المبادىء والقيم التى يدافع عنها الآخر ، عندما يفهم كل منا هذه الأشياء ، سوف تتحقق باقى الأمور من تلقاء نفسها » .

ويبدو ان ما اراد الرئيس السادات قوله هو أنه يقدر للروس عدم تدخلهم بسبب حركة التطهير فى الداخل ويقدر لهم اعترافهم له بحرية الحركة . وبالرغم من ذلك فان القيادة السوفييتية لم تكن راضية عن تطور الاحداث فى مصر ولا عن مدى امكانية الاعتماد على الرئيس السادات .

وفى النصف الثانى من شهر يونيو سنة ١٩٧١ اتخذ الرئيس السادات خطوة اكثر اهمية حينما دعا الملك فيصل ملك العربية السعودية الى زيارة مصر للتشاور معه . ولقد كانت هذه الزيارة — التى استمرت اسبوعا — ايذانا بانتهاء العداء المصرى السعودى الذى استمر لفترة طويلة وايذانا لبدء تحالف جديد بين الدولتين وصل الى ذروته بعد هذا بعدة سنوات فى تعاونهما أثناء حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

ثم تلقى الاتحاد السوفيتى بعد ذلك ضربة أشد عنفا موجهة الى وضعه فى الشرق الاوسط فى يوليو سنة ١٩٧١ عندما فشلت محاولة قلب نظام الحكم فى السودان يوم ١٩ من يوليو على يد جماعة من ضباط الجيش الذين تعهدوا بقيام تعاون وثيق مع الاتحاد السوفيتى الذى تلقى صدمة عنيفة بعودة نميرى الى السلطة بعد الانقلاب بثلاثة ايام فقط (*)

لقد انتهج الروس فى بادىء الامر سياسة معتدلة تجاه احداث السودان متمسكين بالأمل فى حدوث تحسن فى العلاقات السوفييتية السودانية ولكنهم أعلنوا احتجاجهم على « الأعمال غير الودية » الموجهة ضد ممثلى الاتحاد السوفيتى فى السودان واعمال العنف الموجهة الى الروس الموجودين فى الخرطوم . وفى الوقت نفسه انحى نميرى باللوم على القادة السوفييت لتأييدهم الشيوعيين السودانيين وقال فى حديث اذاعى يوم ٥ من اغسطس سنة ١٩٧١ : « لقد اظهرت

لنا المحنة نوع الاصدقاء الذين اعتدنا ان نحييهم ونصفهم بنصرة الشعوب الضعيفة ، بينما هم يريدون ـ كما تأكدنا الآن ـ ان يدخلوا الى السودان وافريقيا بوجه آخر للاستعمار . ولن نقبل ان يستعمرنا الاتحاد السوفيتى أو اى دولة أخرى » .

وفى اليوم التالى هاجم نميرى القادة السوفييت مرة اخرى ووصفهم بأنهم مستعمرون . وبالرغم من الهجوم العنيف المتبادل بين الاتحاد السوفيتى والسودان ، لم تقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، على الرغم من أن نميرى استدعى سفيره فى موسكو ، وطرد كلا من مستشار السفارة السوفيتية وسفير بلغاريا لدى السودان . ويبدو أن الروس بدورهم قد استمروا فى تقديم مساعدتهم الاقتصادية والعسكرية للسودان بينما قاموا بتنظيم مظاهرات للطلبة العرب امام سفارة السودان فى موسكو. ومن الامور المثيرة ان الطلبة المتظاهرين لم يكونوا فقط يحملون لافتات تهاجم نميرى وانما كانوا يوجهون النقد كذلك الى الرئيس المصرى أنور السادات .

لقد استاء الروس من بعض الاجراءات التى قام بها الرئيس السادات فى الداخل وتأكيده فى خطابه الذى القاه يوم ٨ اغسطس ١٩٧١ أمام مندوبى النقابات العمالية المصرية على الوحدة الوطنية فى مواجهة الصراع الطبقى وتشجيعه المتزايد لرأس المال المحلى والاجنبى .

وفى الوقت نفسه تلقى السوفييت صدمة كبيرة أخرى عندما قام هنرى كيسنجر بزيارة بكين وأعلن عن عزم الرئيس الامريكى ريتشارد نيكسون القيام بزيارة للصين الشيوعية فى اوائل سنة ١٩٧٢ . وكانت هذه التطورات تعنى أن التقارب الصينى الامريكى - الذى طالما كان السوفييت يخشون وقوعه - قد أصبح حقيقة واقعة ، وبالتالى أصبح ضروريا ان يقوم القادة السوفييت بتعديل سياستهم .

وعلى أية حال لم يكن ربيع سنة ١٩٧١ وصيفها فترة نجاح للسياسة السوفييتة فى الشرق الاوسط ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت اعادة تقييم عدد من السياسات السوفيتية موضع تنفيذ .

اعادة تقييم السياسة السوفيتية :

أدت الاحداث التى وقعت ما بين شهرى مايو ويوليو سنة ١٩٧١ الى اعادة تقييم مضنية للسياسة السوفيتية فى الشرق الاوسط . ويبدو أن الاسراع فى اعادة تقييم السياسة السوفيتية كان راجعا الى الاطاحة بعدد من الشخصيات الموالية للروس فى مصر ، ومحاولة الانقلاب الفاشلة التى أيدها الشيوعيون فى السودان والتى أدت الى القضاء على الحزب الشيوعى القوى فى السودان وتدهور شديد فى العلاقات السوفيتية السودانية والتقارب الذى

كان يتم بسرعة مذهلة بين الـولايات المتحـــدة والصـــين الشيوعية ، والذى لا بد من أنه أدى الى تعقيد خطير فى خطط الأمن السوفيتية .

وجاءت اول علامة على الموقف السوفيتى الجـديد فى التقييم المعدل للاتحاد العربى ، الذى كان مقررا قيامه اول سبتمبر ١٩٧١ فلقد بدا أن هذا الاتحاد يتخذ اتجاها معاديا للشيوعية ومعاديا للسوفييت نتيجة أحداث صيف سنــة ١٩٧١ . وبدأ السوفييت يقولون انه لكى ينجح هذا الاتحاد فلا بد من أن يكون فيه مكان للشيوعيين والقوى التقدميــة الاخرى . فقد نشرت « نيو تايمز » مقالا للمعلق السوفيتى د. بتروف يحلل فيه تحليلا مفصلا العقبات القائمة فى طريق الوحدة العربية ، وكان يعكس خوف السوفييت تجاه النفوذ الأمريكى المتزايد فى العالم العربى . وجاء فى ذلك المقال :

« هناك وجهة نظر أخرى بخصوص الوحدة العربية »

كثيرا ما ظهرت فى بعض الدول العربية حتى بين المستويات العليا ، وهى أن التحرك نحو الوحدة هو « القضية القومية العليا » للعرب جميعا بغض النظر عن أوضاعهم الاجتماعية وآرائهم السياسية وبغض النظر عن النظم الاجتماعيـــة والسياسية فى مختلف الدول ، ويرى مؤيدو هـــذا الراى انه من الضرورى للقيام بهذه المهمة القومية ، الاستفادة بأى نوع من الدعم الخارجى ، سواء جاء هذا الدعم مـــن الدول الاشتراكية أو الدول الراسمالية ، وقد قيل — على

سبيل المثال ــ انه يكفى مجرد تحييد الولايات المتحدة او الحد من دورها ، حيث يدعى انها تمتلك « مفتاح » تسوية نزاع الشرق الاوسط نظرا لتأييدها لاسرائيل .

« ولقد سعت القوى الوطنية اليمينية والرجعية فى الدول العربية الى رفع علم معاداة الشيوعية بتشجيع من الامبرياليين . وتحاول هذه الدول اقناع الشعب بأنه من الممكن الحصول على تأييد الدول الاشتراكية فى محاربة الامبريالية والعدوان الاسرائيلى ، وفى الوقت نفسه القضاء على الشيوعيين العرب وحظر نشاط الاحزاب الشيوعية » .

« ان خطأ هذا الموقف واضح ، فقد اظهرت التجربة ــ بما فيها التجربة العربية ــ انه من غير الممكن النجاح فى محاربة الامبريالية الا اذا اتحدت القوى الوطنية التقدمية كافة . ولا يمكن ان تؤدى اية محاولة لفصل الشيوعيين واحزابهم عن النضال المشترك الا الى اضعاف هذه الجبهة الواحدة . ووقوعها فى ايدى القوى الامبريالية وعملائها ».

وحتى يمكن أن تجعل روسيا هذا الرأى مقبولا من العرب والاحزاب الشيوعية العربية ــ بعد أن اقتنع السوفييت بأن خططهم الاصلية وهى حل الاحزاب الشيوعية ومشاركة الشيوعيين العرب فى الجبهات الوطنية كأفراد ، قد ثبت عدم فعاليتها ، رأوا انه من الافضل للمصالح السوفييتية لو أن الاحزاب الشيوعية العربية احتفظت بوجودها المستقل .. وكانت هذه هى النغمة التى تزايد

هذه أول زيارة للوفد الاسرائيلى لموسكو ، فقد كان هناك عدد من المؤشرات الاخرى التى تدل على محاولة السوفيت تحسين علاقاتهم باسرائيل ، ومنها منح تأشيرات دخول للاسرائيليين الذين يحضرون مؤتمرات دولية فى الاتحاد السوفيتى (وغالبا ما كان الاسرائيليون يمنعون فى الماضى من الدخول وحضور المؤتمرات الدولية التى تعقد فى الاتحاد السوفيتى) ، الى جانب المعاملة الخاصة والاستقبال الحار الذى كان هؤلاء الزوار الاسرائيليون يلقونه .

ومع ذلك فان ذلك كله يتضاءل أمام اهم قرار اتخذته القيادة السوفيتية خاصا باسرائيل ، وهو القرار الخاص بزيادة أعداد اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفيتى الى اسرائيل زيادة كبيرة فقد زاد عدد هؤلاء المهاجرين من ٣٠٠ شخص الى ٣٠٠٠ شخص فى المتوسط شهريا . فلقد كان الحصول على موافقة السوفييت على هجرة اليهود الروس الى اسرائيل حلما طالما راود اسرائيل ، وكان هذا واحدا من العوامل التى أدت الى تعقيد العلاقات السوفيتية الاسرائيلية منذ قيام الدولة اليهودية سنة ١٩٤٨ . وربما يكون هناك عدد من الاعتبارات السياسية الداخلية وراء قرار القادة السوفييت بزيادة عدد المهاجرين ، لكن ماتضمنه القرار بالنسبة للسياسة الخارجية كان ذا أهمية كبيرة . ففى المقام الاول ، كانت أعدادكبيرة من اليهود المهاجرين فى سن التجنيد ، وكانت نسبة عالية نسبيا منهم من المهنيين « من الاطباء والمهندسين والعلماء » الذين يمكن أن يساهموا

التركيز عليها خلال الشهور التالية ، فقد حث الـروس كلا من سوريا والعراق على تكوين جبهة وطنية يشارك فيهـا الشيوعيون فى البلدين عن طريق احزاب شيوعيـة ، وان تكن احزابا تابعة .

وبالاضافة الى وضع تقييم جديد للاتحاد العربى وتحديد دور جديد للاحزاب الشيوعية العربية ، كان هناك تغيـير رئيسى ثالث فى السياسة السوفيتية فيما يتعلق بعـلاقات الاتحاد السوفييتى باسرائيل، العدو الاول التى تحتل أراضى اثنتين من الدول الثلاث الاعضاء فى الاتحاد . فقـد دعى وفد اسرائيل لزيارة موسكو لمدة اسبوع فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٧١ وكان جميع اعضاء هـذا الوفد من معارضى سياسة رئيسة الوزراء جولدا مائير فيما يختص بالنزاع العربى الاسرائيلى. وابرزت الصحافة السوفييتية « السمات التقدمية » لهذه المجموعة بالرغم من ان واحـدا منها فقط كان شيوعيا ، وبالغت الصحافة فى تصوير أن هنـاك فى اسرائيل قوى مهتمة بتغيير اتجاه اسرائيل ووضعها أمـام العالم . فقد كتبت (برافدا) فى ٨ من سبتمبر سنة ١٩٧١ تقول : لقد أعلنت المجموعة معارضتها للتصريحـات المعادية للسوفييت التى تصدر عن الدوائر الاسرائيلية الحاكمة ، فيقول م. ايدلبرت عضو جمعية الصـداقة السـوفيتية الاسرائيلية : « لقـد سئم الشعب الاسرائيـلى الحرب وسياسة اسرائيل المنحازة للامريكيين الامبرياليين » .

مساهمة هامة فى المجهود الحربى لاسرائيل . وبهذا يتبين انه بينما كان الروس يزودون مصر بالمستشارين العسكريين والاسلحة لتحارب بها اسرائيل ، كانوا يزودون اسرائيل بالقوى البشرية العسكرية والافراد ذوى المهارات الحيوية بالنسبة للقطاعين العسكرى والمدنى للاقتصاد الاسرائيلى .

لقد كان هناك عدد من الافتراضات لتفسير القرار السوفيتى بالسماح بهجرة اليهود على نطاق واسع . فيرى بعض المثقفين ان اليهود « يلوثون » بقوميتهم الاقليات السوفيتية الاخرى ، ولهذا السبب ترغب السلطات السوفيتية التخلص منهم ويرى آخرون أن السماح بهجرة اليهود السوفييت كان على سبيل الترضية للرأى العام فى الغرب اذ أن موضوع اليهود السوفييت أصبح الآن قضية هامة فى العالم الغربى ، بمعنى انه عن طريق تقديم تنازل فى هذا الموضوع غير الهام نسبيا للقادة السوفيت يمكن للاتحاد السوفيتى تحسين علاقاته بالغرب — تلك العلاقات التى تدهورت بشدة بعدعملية غزو تشيكوسلوفاكيا — وهذا التحسن قد أصبح ضروريا نتيجة احتياجات الاتحاد السوفيتى فى مجال التجارة الخارجية ونتيجة التقارب الصينى الامريكى . والواقع ان الروس طالما بالغوا فى تقدير النفوذ اليهودى والصهيونى فى واشنطن وربما كانت القيادة السوفيتية تأمل — عن طريق زيادة عدد المهاجرين السوفيت الى اسرائيل — فى أن تحصل الاهداف السوفيتية على

تأييد « جماعات الضغط الصهيونية » فى أمريكا . وهناك مدرسة فكرية ثالثة تؤكد ان خروج اليهود السوفييت الى اسرائيل كان علامة واضحة على استياء السوفييت من الرئيس السادات ، وكان وسيلة للضغط عليه على نمط رحلة فيكتور لويس لاسرائيل فى شهر يونيو .

وهناك افتراض رابع يحتمل المناقشة ، ففى ضوء الاحداث التى وقعت فى صيف سنة ١٩٧١ ، نجد الروس قد قرروا عدم مساندة مصر فى أى حرب جديدة ضد اسرائيل، ومع ذلك فانه بدون الحرب كان يستحيل ضمان فتح قناة السويس ، الامر الذى يعتبر هدفا أساسيا للسياسة السوفيتية . ففى اعقاب التقارب الصينى الامريكى لا بد وانه من الضرورى بالنسبة للروس دعم جبهتهم الجنوبية فى مواجهة الصين ، وكان من أساليب تطبيق هذه السياسة قيام الاتحاد السوفيتى بتوقيع معاهدة طويلة الامد مع الهند فى اغسطس سنة ١٩٧١ .

وكان من شأن فتح قناة السويس أن يمكن للاتحاد السوفيتى من نقل امداداته الى الهند بسرعة فى حالة نشوب حرب بينها وبين باكستان وهى حالة بدت محتملة الوقوع فى ذلك الصيف ، كما أن فتح القناة يمكن الاتحاد السوفيتى من نقل الامدادات الى جبهته الشمالية الشرقية فى مواجهة الصين بطريقة اكثر فعالية من نقل الامدادات عن طريق الخط الحديدى عبر سيبيريا .وأخيرا فان

انسحاب بريطانيا من الخليج العربى - الذى كان مقررا له آخر سنة ١٩٧١ - يجعل من فتح القناة وسيلة لتمكين الاتحاد السوفيتى من نقل اسطوله من البحر المتوسط الى الخليج بسرعة اذا اقتضت الحاجة ذلك . ومع ذلك فانه لا يمكن فتح القناة دون التوصل الى اتفاق مع اسرائيل ، ونظرا لعدم رغبة السوفييت فى استخدام القوة العسكرية ضد الدولة اليهودية ، فربما يكون القرار السوفيتى بزيادة عدد المهاجرين الروس الى اسرائيل - الى جانب التحركات الأخرى لتحسين العلاقات السوفيتية - الاسرائيلية اشارة الى الحكومة الاسرائيلية بأن فى مقدورها أن تتوقع الحصول على فوائد أخرى اذا ما وافقت على فتح القناة بشروط مناسبة .

وكان التغير الهام الرابع فى السياسة السوفيتية عقب التغييرات التى وقعت فى مصر والسودان هو بذل جهد كبير لتوسيع قاعدة العلاقات السوفيتية فى الشرق الاوسط . فبعد أن ركز السوفيت اهتمامهم خلال السنوات السابقة على قلب العالم العربى (مصر وسوريا والعراق) أخذوا فى تقوية مواقعهم فى دول عربية اخرى كذلك . وكان هناك نشاط ديبلوماسى مكثف بين الاتحاد السوفيتى ودول الشرق الاوسط ، بدأ بالزيارة التى قام بها رئيس وزراء جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (اليمن الجنوبية)

لموسكو فى ٣٠ من سبتمبر . ثم قيام كوسيجين خلال الأيام العشرة الاولى من أكتوبر بزيارتين رسميتين الى الجـزائر والمغرب .

ولم تقتصر جهود الاتحاد الســـوفيتى لاعادة تثبيت وضعه فى العالم العربى على الدول العربية وانمـا تحـول أيضا الى المنظمتين الفدائيتين العربيتين الاساسيتين . ففى أوائل سبتمبر سـنة ١٩٧١ دعت منظمة التضامن السوفيتى الأفروآسيوى للمرة الاولى وفدا من الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل لزيارة موسكو ، وذلك بعد أن قامت الصحافة السوفيتية بحملة ضخمة لاظهـار النجاح الذى حققته هذه الجبهة ضد سلطان عمان . وبعد مضى شهـر دعت المنظمة نفسها ياسر عرفات لزيارة موسكو .

وبينما كان الروس يحاولون ضم عرفات ومنظمته ضمن حملته الجديدة للاستئثار بالنفوذ فى العالم العربى كان رجال المنظمات الفلسطينية أيضا يريدون الاستفادة من هذه الزيارة وعقب عودة عرفات من موسكو صرح بأن محادثاته مع القادة السوفييت كانت (ناجحة للغـاية) وبانه وجـد الجو فى موسكو « اكثر حرارة » مما كان فى زيارته السابقة فى فبراير سنة ١٩٧٠ . فقد تغير المـــوقف بالنسبة للجانبين تغيرا ملحوظا منذ ذلك الوقت الذى انهكت الحـرب مع الجيش الاردنى قوات المنظمة الفلسطينية واضعفتها فلم يعد رجال عرفات يمثلون القوة المستقـــلة التى كانوا يمثلونهـــا فى

السياسة العربيــة ولما كان الفلسطينيون فى حاجة الى التأييد السوفيتى أكثر مما كانوا أثناء زيارة عرفات السابقة لموسكو فى فبراير سنة ١٩٧٠ ولذلك افترض الروس أن منظمة التحرير الفلسطينية قـد أصبحت أكثر استسلاما للنفوذ الروسى . ولذا فانه بالرغم من استمرار الشيوعيين الصينيين فى تأيدهم منظمة التحرير الفلسطينية حيث قام وفد من منظمة فتح (أهم جمـاعة فى منظمــة التحـرير) بزيارة بكين قبل زيارة عرفات لموسكو وقد حصل الوفد من شو اين لاى على وعد باستمرار مساعدة الصين لهم فقـد رغب الروس فى ضم الفلسطينيين تحت جناحهم عندمـا تعهدوا هم أيضا بتقديم المعونة اليهم فى مجال التـــدريب والرعاية الطبية والمعدات .

وبينما كان الروس يتحركون لتحسين علاقاتهم بالجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل ومنظمــة التحرير الفلسطينية فانهم لم يهملوا علاقاتهم بالحكومات التى كانت على خلاف مع المنظمتين ، فوقع الروس عددا من الاتفاقيات مع نظام الملك حسين فى الاردن ، كان من بينها اتفاقيـــة لتزويد الاردن بالخبراء الروس للمساعدة فى البحث عـن المعادن ، وابرموا فى نوفمبر صفقة لتزويد لبنان بأسلحـة قيمتها ثمانية ملايين من الدولارات. ودعا الاتحاد السوفيتى فى ٧ من ديسمبر سنة ١٩٧١ رئيس الجمهورية العربيـة اليمنية (اليمن الشمالية) الذى يقف موقفا معاديا لنظام الحكم فى اليمن الجنوبية والجبهة الشعبية لتحرير الخليج

العربى المحتل لزيارة موسكو زيارة رسمية . بل لقد رحب الاتحاد السوفيتى باقامة علاقات طيبة مع الحكومات المحافظة للدول الجديدة فى الخليج العربى وهى : البحرين وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة .

ويبدو ان تبرير هذه التحركات السوفيتية التى تبدو متناقضة يمكن فى محاولة للقادة السوفييت ان يوسعوا قاعدة العمليات السوفتية فى الشرق الاوسط الى اقصى حد ممكن ، فلو وضعنا في الاعتبار التغييرات السريعة والظواهر المتكررة فى السياسة العربية مثل الانقلابات والانقلابات المضادة ، لبدا ان الروس قرروا آنئذ محاولة الحصول على اكبر قدر ممكن من النفوذ لدى جميع الأطراف المؤثرة فى العالم العربى حتى تكون لهم علاقات طيبة — بقدر معقول — مع من ينتصر فى اى من صراعات السلطة العديدة فى المنطقة ، ايا كان هذا المنتصر .

وكان من نتائج توسيع نطاق العمل السوفيتى فى العالم العربى الحد من علاقات الاتحاد السوفيتى بمصر . وكما ذكرنا فقد استاء السوفيت من الرئيس السادات لاعطائه قدرا كبيرا من الحرية لرأس المال الخاص وتصالحه مع عدد من الراسماليين المصريين . ولقد أنهى السادات الاستيلاء التعسفى على الممتلكات الخاصة الذى كان يحدث فى عهد عبد الناصر ، مما شجع المصريين على العودة الى استثمار الاراضى واقامة المنشآت ، وقام السادات — بالاضافة الى

هذا ــ باجراء جرىء لاجتذاب راس المال الاجنبى ، اذ انشأ بنكا بالعملات الاجنبية لأغراض التنمية والتجارة الدولية وأصبحت انتقادات الروس للسادات علنية .

وظلت العلاقات باردة بين الاتحاد السوفيتي ومصر خلال شهر سبتمبر . وفى هذا الشهر تمت زيارة سير أليك دوجلاس هيوم وزير الخارجية البريطانى للقاهرة ، وكانت هذه أول زيارة يقوم بها وزير خارجيةبريطانى لمصر منذ حرب السويس سنة ١٩٥٦ . وقد نجحت هذه الزيارة حيث تم خلالها ابرام اتفاقية لتعويض المواطنين البريطانيين الذين كانت ممتلكاتهم قد أممت فى مصر ، كما انها مهدت الطريق لمشاركة بريطانيا فى تمويل مشروع خط انابيب البترول بين السويس والاسكندرية . وهو تطور لم يلق استحسانا من جانب موسكو . ومن ثم بدا أن العلاقات السوفيتية المصرية قد شهدت تدهورا آخر مع اقتراب موعد زيارة الرئيس السادات لموسكو . فقد نشرت صحيفة برافدا مقالا لبافيل بمشتشينكو بمناسبة الذكرى الاولى لوفاة عبد الناصر ، وقبل الموعد المحدد لزيارة السادات بأسبوعين فقط ، جاء فيه : « تبذل الدول الاستعمارية ــ وبصفة خاصة الولايات المتحدة ــ كل ما فى طاقتها لاضعاف العلاقات السوفيتية المصرية ، وعزل مصر عن الدول الاشتراكية » .

وذكر الرئيس السادات قبل سفره الى موسكو ــ فى اجتماع مع عدد من أساتذة الجامعات ــ ان من بين أهداف

رحلته ازالة « السحابة السوداء » المخيمة على العلاقات المصرية السوفيتية . وعلى اية حال لم يكن سهلا من وجهة نظر الجانب المصرى على الاقل ــ تسوية المسألة الأساسية فى العلاقات المصرية السوفيتية . ذلك ان الرئيس السادات كان قد الزم نفسه بالفعل بأن تكون سنة ١٩٧١ هى « سنة الحسم » فى صراع مصر مع اسرائيل وبدا أن هدفه الاساسى هو الحصول على الدعم السوفيتى اللازم للقيام بعمليات عسكرية ضد اسرائيل .

والروس لم يكونوا مستعدين ، وكان الوصف الرسمى لمحادثات موسكو بين الرئيس السادات والقادة السوفييت حافلا بعدة اشارات الى (روح الصراحة) و (تبادل الآراء) وكانت هذه دلالات على وجود عدد من نقاط الخلاف بين الجانبين . وقد كرر السادات ــ فى الخطاب الذى ألقاه يوم ١٢ من اكتوبر ــ انه يتوقع من الاتحاد السوفيتى ان يدعم مصر عند حاجتها الى الدعم .

ولكن على النقيض من ذلك ركز بودجورنى فى خطابه على الحاجة الى ايجاد حل سلمى للصراع العربى الاسرائيلى ، وكان البيان المشترك الذى صدر فى ختام المحادثات انعكاسا واضحا للاولويات السوفيتية لا المصرية . فقد اعيد التركيز فى البيان على قرار الامم المتحدة الصادر فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ ، وكان أقصى ما استطاع المصريون الحصول عليه من المحادثات عبارة غامضة الى حد ما تقول « ان

الجانبين اتفقا على اتخاذ الاجـراءات التى تستهدف دعم قوة مصر العسكرية » .

ومع ذلك فلا بد من أن يكون اكثر ما أثار حنق المصريين هو قيام السوفيت بوضع العبارة التالية ضمن البيان ، وهى تكاد تلزم المصريين بالتسوية السلمية : لقد لاحظ الجانب السوفيتى بارتياح موقف مصر البناء فيما يختص بتحقيق تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط ، ورغبتها فى التوصل الى تسوية عادلة التى عبرت عنها بوضوح ـ من خـــلال وساطة جونار يارنج المبعوث الخاص للسكرتير العام للامـــم المتحدة على اساس تنفيذ جميع بنود قرار مجلس الامـــن الصادر فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩٦٧ وانسحاب اسرائيل الى خطوط ٤ من يونيو سنة ١٩٦٧ ، وتحظى هذه الرغبة بتأييد الدول والشعوب المحبة للسلام .

وبعد هذه الزيارة غير الناجحة اعلنوا فى اول نوفمبر موافقتهم على اقامة مصنع للالومنيوم فى نجع حمادى يتكلف انشاؤه ١١٠ ملايين دولار . وربما كان اعلان هذه الاتفاقيـــة نوعا من الترضية الاقتصادية لمصر لتعويضها عن امتنـــاع السوفييت عن تقديم الدعم العسكرى المطلوب ، ويمكن أيضا رؤيته كمحاولة للمحافظة على الشكل الأســــاسي للتعاون الاقتصادى بالرغم من الخلافات السياسية .

وخلال الفترة التى أعقبت المحادثات السوفيتية المصرية استمرت الحكومة السوفيتية فى بياناتها الخاصة بالشرق

الاوسط ــ فى التشديد على الحاجة الى ايجاد تسويةسلمية لنزاع الشرق الاوسط . وبالرغم من احاديث السادات التى أخذ الميل الى القتال يتزايد فيها ، فقد اشار الروس بوضوح الى انهم لن يؤيدوا اى هجوم مصرى على المناطق التى تحتلها اسرائيل ، سواء كانت هذه « سنة الحسم » أولا . فلم يكن الروس مستعدين للمخاطرة بحدوث مواجهة بينهم وبين الولايات المتحدة التى كان رئيسها مدعوا لزيارة الاتحاد السوفيتى فى مايو سنة ١٩٧٢ ، والذى كان يعد لرحلته التالية الى الصين . كذلك كان لدى الروس فى ذلك الوقت اهتمامات أخرى ، فى مقدمتها النزاع المتزايد بين الهند وباكستان . وان ضيق المساحة هنا يحول دون تقديم تحليل مفصل للدور السوفيتى فى حرب الهند وباكستان سنة ١٩٧١ . وقد ادت هذه الحرب الى وضع مؤيدى الروس من العرب فى موقف حرج .

وهكذا مع بداية العام الجديد اصبح موقف الروس فى الشرق الاوسط يكتنفه الغموض . فمن ناحية تمكن القادة السوفييت من تقوية وضعهم الاستراتيجى فى مواجهة الصين بصورة ملحوظة عن طريق تأييدهم للهند فى حربها الناجحة ضد باكستان . وبعد أن أصبحت باكستان لا تمثل تهديدا كبيرا للهند ، أصبح فى مقدور الهند ان تركز قواتها فى مواجهة الصين ، وهذا من شانه ان يؤدى الى تعقيد كبير فى مشكلات الصين الخاصة بالامن، اذا وضعنا فى الاعتبار

القوات الروسية الموجودة على طول الحدود الشمالية للصين.
ومن ناحية أخرى تناقصت شعبية الاتحاد السوفيتى فى العالم العربى بسبب مساعدته للهند ضد باكستان الاسلامية وبسبب القرار السوفيتى بزيادة هجرة اليهود الى اسرائيل زيادة كبيرة ، وحتى قبل هذا القرار كانت هجرة اليهود الى اسرائيل تمثل مشكلة حساسة بالنسبة للقادة العرب ، كما قالت صحيفة « الرأى العام الكويتية » فى يوم ٢١ من مارس سنة ١٩٧١ : « اننا نعرف جيدا أن كل يهودى يصل الى اسرائيل يصبح جنديا فى جيشها . ومع ادراكنا أن موسكو حرصت دائما على اعطائنا أسلحة دفاعية فقط ، فيمكننا الآن أن نرى الفارق بين هذه الاسلحة وبين القوة البشرية التى ترسلها موسكو الى اسرائيل لتستخدم الاسلحة الهجومية التى تمتلكها بالفعل . فالروس – مثلهم فى هذا مثل الامريكيين – يريدون منا ان نظل تحت رحمة العدو ، وبالتالى نظل دائما فى حاجة الى موسكو وتحت سيطرتها.

يضاف الى هذا ان العلاقات السوفيتية السودانية ظلت ضعيفة . وبعد أن مر « عام الحسم » الذى كان الرئيس السادات قد أعلنه ، فقد أخذ يوجه اللوم علنا الى الاتحاد السوفيتى لنقص الدعم الذى يقدمه الى مصر فى مواجهتها مع اسرائيل . ونتيجة لهذا بدا أن الهدف التكتيكى السوفيتى مع بدء العام الجديد كان يتمثل فى موقف الموجة المتزايدة من معاداة السوفيت التى أخذت تجتاح العالم العربى .

المعاهدة السوفيتية العراقية :

تركزت جهود القيادة السوفيتية لوقف التيار المتصاعد من معاداة السوفيت ومعاداة الشيوعية فى العالم العربى ، على محاولة استغلال الأحزاب الشيوعية فى الشرق الاوسط لمواجهة هذه الاتجاهات . وكان مؤتمر الحــزب الشيوعى اللبنانى الذى كان قد حصل وقتئذ على تفــويض قانونى بممارسة نشاطه فى اوائل يناير سنة ١٩٧٢ قد أتاح الفرصة لذلك لأن هذا المؤتمر اجتذب وفودا من أحــزاب الحكومة ووفودا من الاحزاب الشيوعية فى الشرق الاوسط والاتحاد السوفيتى واوروبا الشرقية ، وكان من أهم ما اسفر عنــه هذا المؤتمر التنديد بالصين التى كانت قد اخذت تنشــط بصورة متزايدة فى شئون الشرق الاوسط بعد أن أعترفت بها كل من تركيا وايران خلال الصيف السابق ، ثم لبنان فى نوفمبر سنة ١٩٧١ .

وأيد المؤتمر اقتراح الاتحاد السوفيتى بعقد مؤتمــر لجميع « التنظيمات التقدمية فى الدول العربية بهدف وضع صيغة » للاتجاه العام للنضال ضد الامبريالية والصهيونيــة والرجعية .

وقد عبر نديم عبد الصمد عضو الحــزب الشيوعى اللبنانى عن هدف القادة السوفييت من ترتيب عقد مثل هذا المؤتمر فى حديثه لصحيفة برافدا يوم ٢٦ من يناير سنة ١٩٧٢ اذ قال :

« تشعر اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اللبنانى بأن هناك حاجة ملحة الآن الى عقد مؤتمر لجميع القوى التقدمية فى العالم العربى . وهذا أمر ضرورى للغاية فى ظل ظروف الضغط المتزايد الذى تتعرض له حركة التحرر العربى. ومن اشكال هذا الضغط المحاولة التى تبذلها دوائر معينة لاثارة المشاعر المعادية للشيوعية والسوفيت » .

وكان المظهر الثانى لقيام القيادة السوفيتية باستغلال الاحزاب الشيوعية العربية لكبح جماح موجة معاداة السوفيت فى العالم العربى هو دعوة القادة السوفييت زعماء كل من العراق وسوريا الى قبول مشاركة الشيوعيين فى جبهة وطنية كشركاء على مستوى أقل . وعبر عن هذه بوضوح مقال كتبه أوليانوفسكى فى صحيفة «نيو تايمز» بعنوان « الشرق العربى — مشكلات تكوين جبهة تقدمية موحدة » وقال الكاتب فى هذا المقال ان الشيوعيين فى كل من العراق وسوريا قدموا تنازلات عديدة لحزب البعث الحاكم حتى يمكنهم دخول الجبهتين الوطنيتين فى البلدين، وان الشيوعيين اعترفوا — بصورة واضحة — بأن حزب البعث هو القوة السياسية القائدة فى كل من الجبهتين . وبمطالبة القادة السوفييت بمشاركة الأحزاب الشيوعية كشريكة على مستوى أقل فى جبهات وطنية ، بدا واضحا انهم قد تخلوا عن خططهم السابقة الخاصة بحل الاحزاب الشيوعية العربية . وأكد الحزب الشيوعى السوفيتى بوضوح صفة المشاركة الاقل مستوى فى الجبهات الوطنية

وكان يقصد من ذلك الى تهدئة مخاوف القادة البعثيين من استغلال الاحزاب الشيوعية فى الاستيلاء على السلطة وهم يأملون (السوفييت) فى أن يؤدى عمل الحزبين الشيوعيين معا فى جبهة وطنية الى تمكينهما من السيطرة على السياسات الخارجية والداخلية للنظامين البعثيين بصورة أكثر فعالية مما لو اشترك الشيوعيون فى النظام كأفـــراد أو اذا كانت الاحـــزاب الشيوعية أحـــزابا معارضة غير قانونيـــة خارج النظـــام .

وفى الوقت الذى قد يكون فيه الحزبان الشيوعيـــان السورى والعراقى قد رحبا بتخلى السوفيت عن سياســـة الدعـــوة الى حـــل الاحـــزاب الشيوعية العربيـــة ، فان الشيوعيين السوريين والعـــراقيين لم يكونوا متحمسين لدخول ائتلاف يكونون فيه تابعين لحـــزب البعث أيا كانت عوائد ذلك على السياسة الخارجية السوفيتية وكانت هناك بالفعل خلافات داخل الحزب الشيوعى السورى حول هذا الموضوع وكانت مهمة الحزب الشيوعى السوفيتى شاقة فى اصلاح هذا التصدع الذى أثار اغلبية أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السورى ضد خالد بكداش السكرتير العام للحزب والموالى للروس . واذا وضعنا فى الاعتبار وصف الاسد للجبهة الوطنية المقترحـــة فى مـــارس سنة ١٩٧٢ والذى جاء فيه ان حزب البعث ستكون له « الأغلبية فى جميع تنظيمات الجبهة » وان لحـــزب البعث الحق المطلق فى « التجنيد للعمل السياسى والتنظيم والدعاية فى صفوف

القوات المسلحة وبين جماهير الطلبة » . واذا أخذنا ذلك فى الاعتبار لما كان مثيرا للدهشة شعور كثير من الشيوعيين السوريين بأن انضمامهم الى الجبهة الوطنية بهذه الشروط قد يعنى النهاية الفعلية للحزب الشيوعى السورى . ويرجع فضل تفرق الحزب الشيوعى السورى الى أن العالم رأى جيدا السياسة السوفيتية تجاه كل من الشيوعيين العرب والقومية العربية . وكانت الطائفة الشيوعية المنشقة هى التى سربت تقرير اللجنة السوفيتية التى استهدفت اصلاح تصدع الحزب الشيوعى السورى ، واذيع التقرير بالعربية من بيروت ثم ترجمته هيئة الاعلام للاذاعات الاجنبية . ولم تكن التحليلات الواردة بالتقرير عن المجتمع العربى تختلف كثيرا عن تحليلات كل من الشيوعيين العرب والشيوعيين السوفيت التى ظهرت فى « ورلد ماركسيت ريفيو » .

وعلى أية حال فقد اختار الأسد بمهارة بعض الشيوعيين من كلا الجانبين للانضمام الى حكومته . وبهذا أثار كل طائفة ضد الأخرى ، وزاد من ضعف الحزب الشيوعى .

وحينما قام الرئيس السادات برحلة أخرى الى موسكو فى فبراير سنة ١٩٧٢ ركز البيان المشترك الذى صدر عقب الزيارة على قرار الامم المتحدة الصادر فى ٢٢ من نوفمبر ١٩٦٧ وعلى الحاجة الى ايجاد تسوية سلمية للنزاع العربى الاسرائيلى . ولذا فان الرئيس السادات ــ عقب عودته من

موسكو ـ أعلن بأن على المصريين أن يعدوا أنفسهم لكفاح سياسى وعسكرى ممتد حتى يستعيدوا المناطق التى تحتلها اسرائيل .

وحدث نفس الشيء الذى فعله السوفيت فى الفترة من (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩) مع مصر ابان رئاسة عبد الناصر ، فقد شرعوا فى تحسين علاقتهم بالرئيس العراقى البكر وأصبحت السياسة الروسية اكثر تأييدا للنظام البعثى العراقى ، لهذا رأينا البرافدا السوفيتية تنشر مقالا يوم ١٤ من يوليو سنة ١٩٧١ لدكتور بتروف بعنوان « العراق على طريق التغيير » امتدح فيه النظام البعثى لانه أحسن اعادة تقييم السياسات التى اتبعها فى فترة حكمه السابقة لعام ١٩٦٣ عندما قام باضطهاد الشيوعيين العراقيين واقام المذابح لهم .

واخذت العلاقات السوفيتية العراقية فى التحسن فى أعقاب الانقلاب الفاشل الذى وقع فى السودان فقد أصبح العراق منعزلا عن كل من العالم العربى والشرق الاوسط بوجه عام حيث كان يواجه دولتين معاديتين هما السعودية فى الجنوب وايران فى الشرق ، كما أن سوريا ـ جارته من ناحية الشرق ـ انضمت الى الاتحاد العربى الذى تتزعمه مصر . وربما كان العراقيون يأملون فى قطع روابط السودان بمصر ودفعه الى اقامة علاقة وثيقة مع العراق .

وزادت عزلة العراق بعد أن استولت ايران ـ خلال حرب الهند وباكستان على ثلاث جزر ذات موقع استراتيجى فى الخليج العربى . وفى الوقت نفسه انهارت الهدنة بين حكومة العراق والاكراد ، حيث اتهم الملا مصطفى البرزانى الزعيم الكردى حكومة العراق بمحاولة اغتياله وبعدم تنفيذ اتفاقية ١١ مارس ١٩٧٠ . ثم أخذت حكومة العراق فى اعتقال اعداد كبيرة من الاكراد ، بينما عاد الاكراد الآخرون الى قلاع البرزانى الجبلية للاعداد للحرب .

وما زاد الامور سوءا للحكومة البعثية المحاصرة أن عباس خلعتبرى وزير الخارجية الايرانى أعلن فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٧١ ان ايران ستساعد الاكراد العراقيين اذا اندلعت الحرب الاهلية مرة أخرى بين الأكراد والحكومة العراقية .
ونظرا لهذه العزلة والاحباط اللذين منى بهما العراق ، فقد أتجه الى الاتحاد السوفيتى وقام صدام حسين الرجل الثانى فى النظام العراقى ووريث البكر بزيارة لموسكو استغرقت اسبوعا . وكان فى خطابه الذى القاه فى حفل ترحيب اقامه كوسيجين صريحا كل الصراحة فى طلب قيام تحالف مع الاتحاد السوفيتى : « هناك اعتقاد متزايد بين أفراد شعبنا بضرورة توحيد القوى التقدمية فى كل بلد عربى ، وتقوية الروابط بين بلدينا (أى العراق والاتحاد السوفيتى) . وبينما نقدر بعمق المساعدة الاخوية التى يقدمها بلدكم العظيم لنا وللدول العربية الاخرى ، فنحن

نتطلع فى الوقت نفسه الى اليوم الذى يطرأ فيه تطور نوعى على طبيعة العلاقات بيننا .

ونعتقد أن التحالف الاستراتيجى القـــوى بين شعبينا وحزبينا وحكومتينا هـو الاساس الذى تنبنى عليه علاقاتنا الاقتصادية والفنية والثقافية وسنظل نبنى على أساسه تلك العلاقات » .

وكان الاتحاد السوفيتى مهتما بابرام معاهدة مع العراق لأن ذلك ــ وفى المقام الاول ــ يتيح للروس مـــوقعا قويا آخر فى العالم العربى ، ويقلل من اعتماد الاتحاد السوفيتى على موقعه فى مصر . وربما يكون الأمر الأكثر أهمية هـو أن ابرام هذه المعاهدة سيقوى من موقف الاتحاد السوفيتى فى الخليج العربى فى الوقت الذى كانت سياســات دول البترول الغنية فى المنطقة عرضة لتقلبات شديدة مستمرة.

وفى منتصف مارس قام العراقيون بمحاولة أخيرة لانهاء عزلتهم عن العالم العربى حيث اقترحوا اقامة تحالف بيـن مصر وسوريا والعراق بدعوى ان هذا التحالف يكون وسيلة لمواجهة مخطط الملك حسين لاقامة اتحـــاد بين الضفتين الغربية والشرقية لنهر الاردن لكن العراق اتجه مرة اخـرى الى الاتحاد السوفيتى حيث خذله أشقاؤه العرب ، وتحققت رغبة العراقيين فى تلك المـرة ، فتم توقيـــع معاهدة بين البلدين يوم ٩ من ابريل سنة ١٩٧٢ أثناء الزيارة التى قام بها كوسيجين للعراق لافتتاح حقول بترول « الرميلة » التى

كان الروس يسهمون فى تطويرها . وكانت مدة المعاهدة خمس عشرة سنة ، ونصت على أن « يتم الاتصالات بين العراق والاتحاد السوفيتى ، فى حالة قيام مواقف تهدد بالخطر أيا من الطرفين أو تهدد السلام بالخطر » . واتفق الجانبان أيضا على الا يدخل أى منهما فى أى تحالف موجه ضد الآخر .

وبالرغم من توقيع المعاهدة يبدو أن خلافات خطيره ظلت قائمة بين البلدين ، ولهذا نص البيان الختامى على أن المفاوضات تمت فى جو من « الصراحة » وانه تم « تبادل الآراء » بين الجانبين وربما كان الروس قد شعروا بالقلق من أن يستخدم العراقيون المعاهدة الجديدة لدعم موقف العراق فى نزاعه مع ايران ، ولهذا نصح الروس العراق بالتزام الحذر فى هذا الشأن . ومن نتائج المعاهدة التى ربما جعلت الروس يشعرون بالاستياء ، حدوث تدهور فى العلاقات العراقية الليبية . وهذا أمر له اهميته الخاصة حيث أن وفدا من ليبيا قام بزيارة الاتحاد السوفيتى فى الفترة ما بين ٢٣ فبراير و ٤ من مارس سنة ١٩٧٢ ووقع فى ذلك الوقت اتفاقية للتعاون الاقتصادى والفنى مع الاتحاد السوفيتى .

وبينما أخذ التعاون العراقى يتزايد ، تعرضت علاقة السوفيتت بمصر لمصاعب جديدة ، فقد واجه الرئيس السادات انتقادات فى الداخل حيث كان طول فترة « اللا حرب واللا سلم » سببا فى احباط المصريين بينما

بدا ان وجود اسرائيل اصبح راسخا فى شبه جزيرة سينـــا المحتلة . وكانت اسرائيل تحصل باستمرار على مساعدات اقتصادية وعسكرية امريكية .

وبعد زيارة الرئيس السادات لموسكو فى فبراير قام بزيارة اخرى لها بعد شهرين فقط ، وكانت هـــذه الزيارة قبيل محادثات القمة بين نيكسون وبريجنيف التى كان كل من السادات وجولدا مائير يخشيان ان تؤدى الى فـــرض تسوية ســـوفيتية امـــريكية فى الشرق الاوســـط تضر بمصالحهما. وكما ذكر الرئيس السادات بعد هذا فى خطاب القاه امام الاتحاد الاشتراكى العربى ، فانه اخبر بريجنيف خلال زيارته لموسكو أن مصر لن توافـــق ابدا على الحد من شحنات الاسلحة للشرق الاوسط او استمـــــرار « حالة اللا حرب واللا سلم » أو التخلى عن « بوصة واحـــدة من الارض العربية » فى اطار اية تسوية سلمية تفرضها القوتان العظميان . وربما يكون الاهم من ذلك أن السادات أعــرب مرة اخرى عن رغبته فى الحصـــول على اسلحة متطورة « منها قاذفات مقاتلة أشبه بالفانتوم يمكنها أن تصل الى عمق اسرائيل ، وصواريخ أرض / أرض » الى جانب دعم السوفيت لمصر فى حالة تجدد القتال مع اسرائيل . ولكن ثبت عدم استعدادهم للتضحية .

وبالرغم من أن البيان المشترك الذى صدر فى ختام زيارة السادات كان يحتوى على تقرير بأن من حق مصر أن تستخدم « وسائل أخرى » لاستعادة الأراضى التى تحتلها

اسرائيـــل اذا ثبت اســـتحالة الحـــل الســـلمى ، لم يلزم الروس أنفسهم بأكثـــر من « بحث الاجـــراءات التى تستهدف زيادة القـــدرة العســكرية لجمهـــورية مصر العربية » . وكان البيان المشترك الذى صـــدر بعد مؤتمر القمة السوفيتى الامريكى اكثر وضوحا فيما يختص بالتسوية حيث أعاد البيـــان التأكيد على « تأييـــد القوتين العظميين لايجاد تسوية سلمية فى الشرق الاوسط تتفق مع قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ » ، وأعلنتـــا عن استعدادهما للقيام بدورهما للتوصل الى تسوية فى الشرق الاوســـط ، « تسمح بصفة خاصة ببحث اتخاذ خطوات اخـــرى نحـــو ايجاد حالة من الاسترخاء العسكرى فى المنطقة » . كذلك تعهدت كل من القوتين العظميين بتحذير الاخـــرى فى حالة ظهور تهديد بنشوب نزاع محلى خطير ، وبألا تسعى أى منها الى تحقيق « مكاسب خاصة بها على حساب الأخرى » .

وبعد ان خذلت القيادة الســـوفيتية الرئيس السادات مرة اخرى فى سعيه نحو الحصول على دعم فعال فى مواجهة اسرائيل ، وبعد أن ووجه باحســـاس المصريين المتـــزايد بالاحباط الى جانب تزايد السخط فى مصر ، بدأ يضـــع خطة لاحداث تحول أساسى فى سياسة مصر الخارجية . وينبغى ملاحظة ان خيبة الامـــل بخـــصوص نقص الدعم السوفيتى لمصر لم يكن بحال قاصرا على الرئيس السادات .

والى جانب استياء المصريين لعدم كفاية الدعم السوفيتى، كان هناك عـدد من عوامـل الاثارة والتوتر فى العـلاقات السوفيتية المصرية . فقد كان الخلاف آخذا فى التزايد بين المستشارين العسكريين السوفيت والضبـاط المصريين ، وكثيرا ما شكا وزير الحـربية المصرى آنذاك الى الرئيس السادات من طعن المستشارين السوفيت فى كفاءة ضبـاطه والقوات التى يتولى قيادتها . وكانت القواعد السوفيتية فى مصر مغلقة فى وجه المصريين ، بل فى بعض الاحيـان كانت مغلقة فى وجه الرئيس السادات نفسه ، ولقـد أثار ذلك ذكريات سيئة للموقف الذى كان قائما قبـل عشرين عاما عندما كان البريطانيون يسيطرون فى مصر .

واذا كان لا يزال هناك اى أمل لمصر فى امكانية الحصول على دعم السوفيت فى حربها ضد اسرائيل ، فقد تهدد هذا الامل بنشر تقرير مجموعة من الشيوعيين السوفييت كانوا قد أرسلوا الى سوريا فى محاولة للمصالحة بين الطـائفتين المتنازعتين فى الحزب الشيوعى السورى ، وهمـا الطائفـة المواليـة لموسكو والطائفـة المستقلة ، وكان هـذا التقرير ــ الذى تسرب عن طريق المستقلين الى صحيفة « الراية » اللبنانية اليومية ــ يحتوى على عدد من الانتقادات المحددة للسياسة العربية وسياسة الشيوعيين العرب . ففى المقام الاول أعرب الروس فى التقرير عن قدر كبير من التشكك فى امكانية قيام وحدة عربية حقيقية ، وذلك نظرا لعـدم وجود « اقتصاد مشترك » . وفى المقام الثانى ، رفض

الروس شعار « القومية العربية » ، وذكروا ان « السعى الى الشعبية من خلال القومية لن يؤدى الا الى نتائج سيئة » . واهم شيء على الاطلاق ان الروس دعوا الى ايجاد حل سياسى — لا عسكرى — للنزاع العربى الاسرائيلى . وقد جاء فى التقرير : « ليس السبب فى هذا هو عدم رغبتنا فى الحرب فقط ، وانما لان الحرب ستؤدى الى كوارث للنظم العربية التقدمية » . وكانت هذه اشارة واضحة الى أن الروس لم يكونوا على ثقة كبيرة فى القدرة القتالية « للنظم العربية التقدمية » ومن بينها مصر .

كان الرئيس السادات قلقا بسبب شعور الاحباط والاستياء المتزايد داخل مصر . والتحدى الذى تواجهه زعامته فى العالم العربى ، ولذا قرر اتخاذ اجراء درامى قبل الاحتفال بالذكرى العشرين للثورة المصرية ، بهدف انهاء القلق الذى كان قد أخذ يتأصل فى مصر بسبب استمرار حالة « اللا سلم واللا حرب » التى سادت بلا نهاية . فبعد فشل الرحلة الاخيرة لطلب السلاح التى قام بها الى موسكو عزيز صدقى رئيس وزراء مصر يوم ١٤ من يوليو ، والذى شكا من انه « بينما لاسرائيل صديق هو « الولايات المتحدة » يتصرف بتهور ويصعد من دعمه لها ، فان لنا صديقا هو « الاتحاد السوفيتى » يضع حسابات ويتصرف بحذر » . أعلن الرئيس السادات « انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفييت فى مصر ، ووضع جميع القواعد العسكرية فى مصر تحت السيطرة

المصرية ، ودعا الى عقد اجتماع سوفيتي مصري للتوصل الى علاقة جديدة بين البلدين .

وليس هناك كبير شك في أن هذه الاجراءات لقيت قبولا وترحيبا من جانب الجماهير المصرية وضباط الجيش. وبدا للمراقبين الاجانب ان البلاد كلها قد انتعشت خلال الاحتفال بالعيد العشرين للثورة بعد هذا بيومين فقط . ولكن لم يكن الدافع الوحيد لهذا الاجراء هو زيادة شعبية الرئيس السادات ، بل كان الرئيس يسعى الى استعادة حرية الحركة في الشئون الخارجية والخروج من الطريق المسدود الذي وضعت فيه مصر نتيجة للعلاقة المصرية السوفيتية . وكان الرئيس السادات يحاول وضع مصر في موقف أكثر أمنا بين القوتين العظميين ، وبدا أن مبرره في هذا هو انه نظرا لأن الاتحاد السوفيتي لم يتمكن من دفع اسرائيل الى الانسحاب من الاراضي المحتلة بالوسائل الدبلوماسية ، ونظرا لعدم رغبته في طرد اسرائيل باستخدام القوة ، فان مصر ستتحول الى طلب المعونة من الولايات المتحدة واوروبا الغربية .

وبالرغم من الروابط الامريكية الوثيقة مع اسرائيل لم ينس المصريون أن الضغط الامريكي كان هو الاساس لاجبار اسرائيل على الانسحاب من سيناء سنة ١٩٥٧ . ولم يخف كبار المسئولين الامريكيين مثل هنري كيسنجر والرئيس نيكسون ، رغبتهم في اخراج الروس من مصر ، وبالتالي اضعاف موقفهم في منطقة شرق البحر المتوسط كلها . فلقد

ادى حرمان الروس من قواعدهم الجـــوية فى مصر وعدم امتلاكهم حاملات طائرات لتقديم غطـاء جـوى لاسطولهم الى وضعهم فى موقف تكتيكى ضعيف فى مواجهة الاسطول الامريكى فى البحـــر المتوســـط ، ولا بد من ان الرئيس السادات كان يفترض ان الولايات المتحدة ستشعر بالامتنان لقيامه بطرد السوفييت . كذلك استفادت اوروبا الغـربية من اضعاف الوجود السوفيتى فى البحر المتوسط ، وربما يكون هناك امـل فى استجـــابة الاوروبيين لهذا الاجراء بالضغط على اسرائيل وامتناع السوق الاوروبية المشتركة عن منحها امتيازات خاصة بالتعريفة الجمركية فى المعاملات التجارية . وبيع أسلحة متطورة لمصر .

وتم التعبير رسميا عن تحرك مصر تجاه اتخاذ مـوقف اكثر حيادا فى المؤتمر الصحفى الذى حضره الصحفيـون الأجانب يوم ٢٢ من يوليو والذىعقده الدكتور محمد حسن الزيات وزير الاعلام المصرى (الذى أصبح وزيرا للخارجية بعد ذلك بشهر واحد) الذى قال :

« لقد انضممنا لنهرو وتيتو فى سياسة عدم الانحياز ، ودعونا الدول الصاعدة الاخرى لأن تفعل نفس الشىء،ونحن لم نحد مطلقا عن هذا الطريق . هذا هو أساس سلوكنا وهو امر هام لفهم كلّ شىء » .

وفى اليوم نفسه نشرت صحف القاهرة بصورة بارزة تصريحات لوزير الدولة للتخطيط أعلن فيهـا عن انتهـاج سياسة « الانفتاح » بالنسبة للاستثمارات الاجنبية . وجاء

فى هذه التصريحات ذكر قانون جديد يعطى ضمانات للاستثمارات الاجنبية (أعلن هذا القانون فى سبتمبر سنة ١٩٧١) وكانت هذه الدعوة العلنية الى الغرب بالاستثمار فى مصر تغيرا مميزا منذ ايام عبد الناصر الذى كان قد أمم المنشآت الغربية فى مصر .

والى جانب محاولة كسب تأييد الغرب كان الوجه الثانى للسياسة المصرية الجديدة يتمثل فى تحرك آخر نحو الوحدة مع ليبيا ، ففى ٢٣ من يوليو أى بعد ستة ايام فقط من طرد الروس من مصر راى الرئيس الليبى انه من المناسب الاعلان عن الطلب الذى تقدم به الى الرئيس السادات بشأن الوحدة بين مصر وليبيا . وفى ٣١ من يوليو تم التوصل الى اتفاق لانشاء « قيادة سياسية موحدة » لوضع الخطط لتوحيد النظم المالية والتعليمية والسياسية والدستورية فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ .

وكان من الممكن ان تزيد ــ نتيجة الوحدة ــ قدرة مصر الدفاعية بصورة واضحة ، اذ انه سيكون فى مقدور الرئيس السادات نقل الطائرات والدبابات المصرية الى ليبيا لتكون بعيدة عن متناول الطائرات الاسرائيلية الى أن يصبح مستعدا لاستخدامها ، ولان ليبيا كانت تتلقى دبابات وحاملات جنود مدرعة من ايطاليا ومقاتلات « ميراج » من فرنسا . ومن الأمور المثيرة فى ذلك الوقت ان الحكومةالفرنسية ــ التى كانت قد فرضت حظرا على تصدير الاسلحة الى الدول المشتركة فى القتال ــ أعلنت عن استمرار تسليم طائرات

« الميراج » لليبيا الى أن تتخذ الوحدة الليبيةالمصريةشكلا أكثر تحديدا .

وبطبيعة الحال كانت خسارة الاتحاد السوفيتى فادحة نتيجة لقرار الرئيس السادات بطـــرد القوات العسكرية السوفيتية من مصر ، بالرغم من أن احتمـــال التورط فى حرب مع الولايات المتحدة أصبح أقل كثيرا ، الأمـر الذى خفف من وقع خروج الروس من مصر الى حد ما ، فقـد اضعف الى حد بعيد موقفهم الاستـراتيجى فى البحـر المتوسط . فبدون قواعدهم الجوية فى شمال مصر ، لم يكن فى مقدور الروس تقديم غطاء جوى لاسطولهم فى البحر المتوسط ، وبدون قواعدهم بالقرب من اسوان جنوبى مصر، يفقدون سيطرتهم على موقع استراتيجى هـام فى شمـال افريقيا . وبينما بقى للروس حق زيارة الموانى المصرية فقد كان هذا الحق يتوقف على مـوافقة المصريين ، وكان فى مقدور المصريين استخدام هذا كورقة للمساومـة لضمان استمرار حصول مصر على المعونة الاقتصادية السوفيتية ، او على الأقل اتمام تنفيذ برامج المعـونة التى كان قد بدأ تنفيذها بالفعل . ومما زاد الأمر سوءا بالنسبة للروس انه فى الوقت الذى ساء موقفهم فيه بالشرق الاوسط ، ازدادت قوة الدولتين المنافستين لهم على النفوذ فى المنطقة ، وهما الولايات المتحدة والصين . واستئناف العلاقات الدبلوماسية بين اليمن الشمالية والولايات المتحدة يوم ٢ من يوليو سنة ١٩٧٢ ، وبين السودان والولايات المتحدة يوم ١٩ من يوليو

سنة ١٩٧٢ . كذلك تحسنت علاقات الولايات المتحدة مع الجزائر عندما وافقت لجنة الطاقة الفيدرالية الامريكية على خطط شركة « الباسو جاس كومبانى » الخاصة باستيراد ما قيمته مليار من الغاز الطبيعى من الجزائر (بالرغم من أن الاسعار لم تكن مرضية تماما للشركة ولا للجزائر) .

كذلك تعزز الوجود الامريكى المتزايد فى المنطقة بالزيا التى قام بها ويليام روجرز وزير الخارجية الامريكى يوليو لكل من الكويت واليمن الشمالية والبحرين التى تو- بها قاعدة صغيرة للولايات المتحدة . وبافتتاح « قاعـ بحرية خاصة » للاسطول السادس الامريكى فى ميناء بير باليونان فى اوائل سبتمبر ، ومن ثم استطاع الاسط السادس زيادة خدمته فى البحر المتوسط حيث أدى التقليل كثيرا من طول الفترات التى يقضيها البحارة بعـ عن عائلاتهم التى انتهز عدد كبير منها الفرصة وانتقل اليونان .

كذلك أخذ الشيوعيون الصينيون ــ الذين اغتبـ لقرار مصر بطرد الروس ــ فى العمل على تحسين موقفهم ، وزاد موقف الصين فى شمال افريقيا تحسنا بتوقيـ اتفاقيتين للطيران المدنى مع حكومة اثيوبيا فى مايو ويوليو عام ١٩٧٢ . وخلال صيف العام نفسه استضافت الصين ممثـ لحكومتى اليمن الشمالية والجنوبية ، كما نزلت زوجة الشاه فى ضيافة الحكومة الصينية فى سبتمبر حيث ا

الشيوعيون ان يفيدوا من التوتر الذى ساد العلاقات السوفيتية الايرانية عقب توقيع المعاهدة السوفيتية العراقية . وبعد فترة طويلة من الفتور أكذت العلاقات الصينية المصرية فى التحسن ، وهو الامر الذى عجل بحدوثه رحيل السوفييت من مصر والذى لقى اهتماما كبيرا من الصحافة الصينية .

ولقد لقى الاتحاد السوفيتى بطرده من مصر - ضربة اخرى موجهة الى نفوذه فى الشرق الاوسط بينما تحسن كثيرا موقف منافستيه الاساسيتين الصين والولايات المتحدة فى لعبة التنافس على النفوذ فى المنطقة . ولكن بقى الشرق الاوسط منطقة متفجرة للغاية .

الفصل الرابع

السياسة السوفيتية

من خروج الروس من مصر حتى نشوب حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣

بالرغم من الخسارة الكبيرة التى لحقت بموقف الروس فى الشرق الاوسط ، فقد كان رد الفعل السوفيتى المباشر لقرار الطرد الذى أتخذه السادات معتدلا نسبيا . وقد ساءت العلاقات المصرية ـ السوفيتية اكثر من ذلك بعد رفض مصر للمذكرة التى بعث بها بريجنيف الى السادات وطلب فيها عقد اجتماع على مستوى عال . وفى ١٣ من اغسطس سنة ١٩٧٢ صرح الزيات « بأن هناك أشياء كثيرة يجب أن تتم تسويتها قبل عقد اجتماع قمة سوفيتى مصرى يمكن عن طريقه تحسين العلاقات فى المستقبل » . وفى ١٩ من أغسطس سنة ١٩٧٢ صرح السادات لمجلس الشعب المصرى بأنه قد رفض « لهجة ومضمون واسلوب » الرسالة التى تسلمها من بريجنيف . وصرح الزعيم فيما بعد بأن رفض الاتحاد السوفيتى امداد مصر بالاسلحة المطلوبة

« كان الهـدف منـه أن يقـودنا الى اليـأس والى حافة الاستسلام » ولـكن مصر ـ بعون الله ـ ستحصل على كل ما تحتاج اليه من أسلحة من مصادر أخرى .

وقد زاد التوتر فى العلاقات المصرية السوفيتية حدة عندما نشبت الحرب الكلامية بين الصحف السوفيتيـة والصحف المصرية فى منتصف أغسطس سنة ١٩٧٢ . بيد أن الصحف كانت صريحة فى التعبير فلم تخش مهاجمـة السوفييت .

وليس هناك ما يمكن ان يقال فى وصف التدهور الذى بلغ أقصى مداه ، والذى لحق بالعلاقات المصرية السوفيتية عندما قتلت مجمـوعة من الفدائيين أحـد عشر رياضيا اسرائيليا فى دورة الالعاب الاوليمبية التى اقيمت فى ميونيخ وتسببوا فى قيام سلسلة من الاحداث أدت الى قلب منهاج الدبلوماسية المصرية رأسا على عقب ، ولكن قبل النظر فى نتائج هذا الحادث ، فانه من الضرورى دراسة السياسة السوفيتية تجاه بعض الاجزاء الاخرى من العالم العربى ، وذلك عقب طرد المستشارين الروس من مصر .

ونظرا لتدهور علاقة الروس مع مصر بهذه السرعة فقد رأوا أن يدعموا وضعهم فى أماكن أخرى من العالم العربى. ففى سوريا ، لم يحذ الرئيس السورى حافظ الأسد حـذو السادات بطرد المستشارين العسكريين السوفييت ، بالرغم من أن هناك بعض الدلائل التى تشير الى انه حصل على ثمن كبير فى صورة مسـاعدات سوفيتية ، وفى حـركة مقابل

« كبح جمـاح نفسه » . وفى العـراق ، ما تزال العـلاقة السوفيتية ــ العراقية تزداد قوة ، المقاومة الفلسطينية تحرك القادة السوفييت أيضا ليزيدوا من نفوذهم داخلها عن طريق تأييد هذه الحركة فى الصحافة السوفيتية بشحنات الاسلحة التى يمـدهم بهـا السوفييت . واخيرا ، فان الروس قاموا بفرض ضريبـة تمنع خروج اليهـود الروس المتعلمين الذين يسعون الى الهجرة الى اسرائيل ، كما انهم تحركوا لمواجهة النقد العربى الذى مفـاده انه فى الوقت الذى يتظاهرون فيه بتأييدهم للقضية العربيـة ، فانهم فى الحقيقة يساهمون فى قدرة اسرائيل على الحرب .

وبالرغم من أن سـوريا رفضت المطالب السوفييتية الخاصة بعقد معاهدة صداقة وتعاون مدتها ١٥ عاما ــ بيد أن الأسد كان أكثر من مستعد لقبول كميـات ضخمة من المساعدات الاقتصادية السـوفيتية ، وتورط الروس فى عدد كبير من مشاريع البناء العمرانية فى سوريا ، التى من أهمها مشروع سد الفـرات . ويعتبر الاتحـاد السوفيتى أيضا الممول الرئيسى للسـلاح فى سوريا ، وقد ساعد المستشارون السوفييت على تدريب الجيش السورى وقواته الجوية . بالرغم من أن عددهم كان أقل بكثير مما كان عليه الحال فى مصر . وتعانى سوريا ــ شأنها شأن مصر ــ مشكلة أمن خطيرة مع اسرائيل . وقد نشبت عدة اشتباكات دورية على الحدود السورية الاسرائيلية بعـد حـرب يونيه سنة ١٩٦٧ . واعقب ذلك مذبحة اللد فى ٢٩ من مايو سنة ١٩٧٢

التى قامت فيها مجموعة من الارهـــابيين اليابانيين الذين يعملون فى احدى المنظمات الفدائية الفلسطينية بقتـل ٢٦ شخصا فى مطار اللد بالقـــرب من تل ابيب وقام الجيش الاسرائيلى بعدة هجمـات فى أعمـاق لبنـان فى محـاولة لتحطيم قواعد الفدائيين . وفى احدى هذه الهجمات ، فى منطقة تبعد ٢٥ ميلا عن دمشق القى الاسرائيليـون القبض على اربعة من كبار الضباط السوريين ومعهم ضابط اتصال لبنانى . وربما تكون هذه الاعمال التى قامت بها اسرائيل هى التى عجلت بزيارة الاسد لموسكو فى اوائل يوليـــو ، تلك الزيارة التى اسفرت ــ وفقا للبيان المشترك ــ عـن اتفاق (حول الاجراءات الخاصة بتـدعيم الامكانيات العسكرية للجمهورية العربية السورية) وعن اتفاق حـول التعـاون الاقتصادى والفنى .

وربما يرجع السبب فى عدم انتهاج الاسد نهج السادات فى طرد المستشارين السوفييت من سوريا ــ الى شعوره بأن بلاده معرضة لهجوم اسرائيل أو لأن الوجـود الروسى أقل تأثيرا فى سوريا عنه فى مصر ، أو ربمـا يكون لاحتيـــاجه المستمر الى مزيد من المساعدات السوفيتية .

وفى حديث نشرته جريدة الانوار اللبنانية بتاريخ ١٠ من اغسطس سنة ١٩٧٢ ، واعيد نشر جزء منه فى البرافدا فى اليوم التالى نقل عن الاسد قوله :

« ان مصالح الشعب السورى تقتضى استمرار مهمة الخبراء العسكريين السوفيت فى بلادنا . ان المستشارين السوفيت يعملون فى سوريا منذ وقت بعيد ، واننى اعتقد أن ضرورة استمرار مهمتهم ليست موضوعا للمناقشة ».

وبينما ظلت العلاقات السوفيتية السورية طيبة ، فان علاقات الاتحاد السوفيتى بالعراق واصلت تحسنها بسرعة كبيرة ،مع تبادل الوفود المستمر بين البلدين . ففى ٢١ من يوليو سنة ١٩٧٢ اى بعد أربعة أيام من طرد السوفييت من مصر نشرت الازفستيا تفاصيل اتفاقية التعاون السوفيتية ـ العراقية التى ابرمت فى ٧ من يوليو سنة ١٩٧٢ . يضاف الى ذلك ان الروس كثيرا ما كانوا يستغلون التصريحات التى يدلى بها قادة العراق لتبرير سياسة السوفييت فى الشرق الاوسط .

وهناك عنصر آخر استخدمه الروس لمواجهة التيار المتصاعد للحملة المعادية للسوفيت فى العالم العربى ، الا وهو الفدائيون الفلسطينيون ، فقد قام وفد من منظمة التحرير الفلسطينية براسه عرفات بزيارة طويلة لموسكو من ١٧ الى ٢٧ من يوليو فى الوقت الذى اتخذ فيه السادات قراره بطرد السوفييت من مصر . وفى مقابل تصديقهم على السياسة التى ينتهجها الاتحاد السوفيتى تجاه العالم العربى تفيد الانباء ان الوفد الفلسطينى الذى يراسه عرفات قد حصل لاول مرة ، وبصورة مباشرة على شحنة من الاسلحة السوفيتية الى جانب تغطية الصحافة السوفيتية

لنضالهم ضد اسرائيل ، وضد العناصر المناهضة للفدائيين فى لبنان .

وبالرغم من كل هذه المحـــاولات التى قام بها الروس لتحسين موقفهم فى العالم العربى بعد طرد مستشاريهم من مصـــر ، فان موقفهم فى الشرق الاوســط قــد ضــعف الى درجة كبيرة . والحقيقة انه ليس هناك من يخبرنا الى أى مدى ذهبت هذه العملية عندما قتلت مجموعة الفدائيين الفلسطينيين أحد عشر رياضيا اسرائيليا ممن اشتركوا فى دورة الالعاب الاولمبية فى ميونيخ ، وسجلوا سلسلة من الأحداث التى اعطت الروس فرصة هائلة لتدعيم موقفهم فى الشرق الاوسط .

مصالحة محـــدودة مع مصر :

كان رد الفعل الفورى ازاء الاعمال الفدائية اقناع قادة غرب أوربا وأمريكا بالضغط على اسرائيل للانسحـــاب من الاراضى المصرية المحتلة . وانتقد فيلى براندت ، الذى كان يبحث موضوع استئناف العلاقات مع مصر ، عدم وجود أى مساعدة من جانب مصر فى الجهود التى تبذلها لاجـــراء مفاوضات مع الفلسطينيين للتوصل الى تسوية ، وأكدت الزعامة المصرية فى ردها أن المانيا الغربية تحاول التهرب من المسئولية بتوجيهها اتهامات كاذبة ضــــد مصر وغيرها من الدول العربية ـ وعندئذ بدأت حكومة المانيا الغربية تتخذ اجراء عنيفـا يتضمن ترحيـل العـرب المقيمين فى المانيـا

الغربية . ووصل تدهور العلاقات المصرية الالمانية ، وهى ثانى الدول الكبرى التى تتعامل معها فى مجال التجـارة ، الى درجة ان الدكتور محمد حسن الزيات ، وزير خارجيـة مصر فى ذلك الوقت ، الغى الزيارة التى كان يزمع القيـام بها لالمانيا الفربية ، والتى كانت جزءا من جـولته التى تم ترتيبها لعواصم غرب أوربا سعيا وراء الحصول على التأييد ضـد اسرائيـل .

وقام الزيات بزيارة لانجلترا ، ولكن مرة اخرى ظهـر النشاط الفلسطينى ليعوق حركة الدبلوماسية المصرية . فبمجرد وصول الزيات الى لنـدن قتـل الملحق الزراعى لاسرائيل ، دكتور عامى شاشورى ، بواسطة خطاب يحتوى على متفجرات مرسل الى السفارة الاسرائيلية مما أثار غضب الرأى العام الانجليزى ضد العرب .

وقد وقفت الولايات المتحدة الامريكية تساند بمزيد من القوة الحكومة الاسرائيلية عقب مذبحة ميونخ ، والحقيقـة أن جورج بوشيـه السفير الامـريكى لدى الامم المتحدة استخدم حق بلاده فى الفيتو ، ذلك الحق نادرا ماتستخدمه الولايات المتحدة ـ عندما لم يقم مجلس الامن بادانة العملية الفدائية ، التى كانت الدافع لشن الغـارات الانتقاميـة الاسرائيلية ، وكان المجلس قد ادان اسرائيل بسبب غاراتها الانتقامية ضد قواعد الفدائيين فى سوريا ولبنـان ، عقب مذبحة ميونخ .

وربما ادت أحداث ميونخ وانعكاساتها على علاقات مصر مع الدول الغربية ، الى الاسراع لتحقيق الوحدة المصرية ـ الليبية . ففى ١٨ من سبتمبر توصل البلدان الى اتفاق أعلنت فيه القاهرة عاصمة الدولة الاتحادية . ونص الاتفاق على أن تكون هناك حكومة واحدة ، وحزب سياسى واحد ، ورئيس جمهورية واحد يتم انتخابه عن طريق اجراء انتخابات شعبية ، وربما كان الشىء الذى ادى الى الاسراع من عملية الوحدة هو مخاوف مصر المتزايدة من ان تقوم اسرائيل بشن هجوم عقب مذبحة ميونخ ، ومخاوفها من قيام الروس بتشجيعها على ذلك وامدادها بكل الوسائل .

وكانت الحكومة الاسرائيلية تواجه ضغطا داخليا كبيرا للانتقام من قتلة رياضيها فى ميونيخ ، ولم يطل ترددها . فبعد أن عانت اسرائيل من هجوم مماثل على مطار اللد قبل مذبحة ميونيخ بثلاثة أشهر فقط ، كان من الواضح أن الاسرائيليين قد قرروا محاولة تلقين الفدائيين درسا لن ينسوه ، وذلك بشنهم سلسلة من الهجمات الجوية فى أعماق لبنان وسوريا ضد قواعد الفلسطينيين ، وفى أعقاب الهجوم الجوى بأسبوع وقع هجوم مدرع داخل لبنان كان الهدف منه تحطيم أكبر عدد ممكن من الفدائيين وقواعدهم . ولم يكن للمقاومة السورية واللبنانية أى تأثير يذكر ، فقد كانت القوات الاسرائيلية تتحرك بحرية فى سوريا ولبنان . وقد ضربت ثلاث قاذفات سورية ـ كانت تقف فى مواجهة

المواقع الاسرائيلية فى مرتفعات الجولان . واستخدمت الهجمات الاسرائيلية مرة أخرى لتؤكد أن سوريا مكشوفة لاسرائيل .

وقد انتهز الاتحاد السوفيتى الفرصة التى أتاحتها الهجمات الاسرائيلية ليقيم جسرا جويا خاصا من الاسلحة الى دمشق لتعزيز الاجهزة الدفاعية السورية . وقد أكد هذا الجسر الجوى ـ الذى أحتل العناوين الرئيسية فى الصحف العربية والغربية الجدل الذى أثاره السوفييت وهو أن العرب لا يلجأون وقت الشدة الا الى الاتحاد السوفيتى.

وظلت الدعاية السوفيتية تؤكد هذا الموضوع منذ اعلن القرار الذى اتخذه الرئيس السادات بطرد الخبراء السوفيت من مصر . وفى محاولة لزيادة مخاوف العرب من توقع المزيد من الهجمات الاسرائيلية ـ ولكى يشعر العرب انهم مكرهون على العودة الى الاتحاد السوفيتى للحصول على مساعدته ـ بدأ الروس بالتالى فى الدعاية لخرافاتهم القديمة عن رغبة اسرائيل المزعومة فى توسيع حدودها من (النيل الى الفرات) .

واستغل الروس أيضا الهجمات الاسرائيلية على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين لاعطاء موقفهم شكلا مسرحيا كمساندين ومؤيدين للفلسطينيين وذلك كى يتمكنوا من كسب مزيد من النفوذ داخل حركة المقاومة الفلسطينية . وفى الوقت الذى نددت فيه الصحف الغربية بالاجماع بمذبحة ميونيخ ، كانت الصحافة الروسية معتدلة فى لهجتها الى

حد بعيد ، وأشارت فقط الى المذبحة على انها (حادث مفجع) .

جاءت أحداث ميونخ ورد فعل اسرائيل عليها — فى الوقت الذى قام فيه الرئيس العراقى البكر برحلة الى موسكو ، الامر الذى أكد التعاون القائم فى تلك الآونة بين الاتحاد السوفيتى وبين العراق . وفى مأدبة العشاء التى أقيمت تكريما للرئيس البكر انتهز الرئيس السوفيتى بودجورنى الفرصة ليهاجم مرة أخرى التصريحات التى تهدف الى تقويض الصداقة العربية السوفيتية ، ووصفها بأنها « تصريحات مشبوهة » . وقد تناول أولبانو فسكر نائب رئيس الادارة الدولية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى هذا الموضوع فى مقال كتبه بجريدة نيوتايمز تحت عنوان « الشرق العربى » ناشد فيه الزعامة البعثية فى كل من سوريا والعراق ان تنجز وعودها لاقامة جبهاتها الوطنية . وصرح بأنه اذا أقيمت هذه الجبهات فانه يمكن فى هذه الحالة تحقيق وحدة عربية حقيقية .

وكان من بين اهداف الموقف السوفيتى الجديد ازاء الوحدة العربية مواجهة حركة الوحدة بين مصر وليبيا التى كانت تنمو وتتطور على أساس مناهضة الشيوعية . وهناك تحد آخر للموقف السوفيتى جاء فى ذلك الوقت من جانب كامل أحمد ، أحد أعضاء الحزب الشيوعى الاردنى ، عندما أعرب عن شكواه من انه « لا يوجد حتى الآن نظرية منظورة ولا مدروسة بوجه عام تكشف عن جوهر ما تسميه بالتطور

غير الرأسمالي » . وأكد كامل أحمد تحديه لأصحاب النظريات السوفيتية الذين ظلوا يعملون لأكثر من قرن ليقدموا مثل هذه الصيغة التي يجب أن لا تكون مثالية تقوم على عناصر عشوائية ، ولا تكون نتيجة لتعميمات مبتدعة متسرعة أو استنتاجات جريئة لا فائدة منها من الناحية العملية ، حتى اذا كانت بمثابة افتراض جدلي .

وفي الوقت الذي ناقش فيه واضعو النظريات السوفيت والشيوعيون العرب الجوانب المختلفة لسياسة الجبهة الوطنية ، أوضح الرئيس العراقي حسن البكر انه لم يأت الى موسكو لمجرد القاء محاضرات حول الرغبة في اقامة جبهات وطنية ، وانما جاء لكي يسعى للحصول على مساندة السوفيت في صراع العراق العنيف مع ايران حول الخليج . ويبدو انه نجح في استمالة القادة السوفيت الى جانب العراق . ولذلك ندد البكر ـ في كلمة القاها ـ بالاجراءات التي تتخذ ضد الحقوق التاريخية للدول العربية في الخليج ، ومحاولات فرض الاستعمار على دول تلك المنطقة . غير أن الامر الأكثر أهمية بالنسبة للعلاقات الايرانية العراقية هو الاتفاقية السوفيتية ـ العراقية التي تدعو الى اتخاذ اجراءات ملموسة من أجل زيادة تدعيم القدرة الدفاعية للجمهورية العراقية مع مراعاة النظر في زيادة الاستعداد القتالي لقواتها المسلحة .

وربما كان الدافع الى توجيه القادة السوفيتت الدعوة الى شاه ايران والسيدة قرينته (اللذين كانا عائدين فورا

من بكين) لزيارة موسكو فى ١٠ من أكتوبر — أى بعد أقل من شهر من مغادرة البكر للاتحاد السوفيتى — هو مواجهة الانطباع بأن الاتحاد السوفيتى يميل الى جانب واحـــد فى الصراع الايرانى — العراقى . بيد أن الاتحـــاد السوفيتى وايران وقعتا معاهدة اقتصادية لمدة ١٥ عاما زادت بمقتضاها حصة السوفييت فى تجارة ايران . ومع ذلك فقد ظلت أقل بكثير من حصة الولايات المتحدة الامريكية والمانيا الغربية — باعتبارهما الدول المشاركة لايران فى المجـال الاقتصادى .

وتوصلت الدولتان ايضا الى اتفـــاقية حـول تقديم السوفييت مساعدة للتوسع فى مشروعات استخراج المعادن فى اصفهان لزيادة طاقتها الى ٤ ملايين طن من الحديد فى السنة ، الى جانب اقامة مشروعات أخرى .

ويشبه الهدف من رحلة الشاه الى موسكو التى جـاءت فى اعقاب زيارة البكر للعاصمة السوفيتية ، الى حد كبير الهدف من الزيارة التى قام بها الرئيس السوفيتى بودجورنى لتركيا فور توقيع المعاهدة العراقية — السوفيتية ، وفى كلتا الحالتين يبدو أن الروس كانوا يأملون فى أن لا يؤدى التحسين فى العلاقات السوفيتية مع العراق الى تدهـــور فى العلاقات السوفيتية التركية او السوفيتية — الايرانية. أما فيما يتعلق بايران فان الاتفاقيات الاقتصادية ربما تكون قد ســاعدت على تهدئة غضب ايران بعض الشىء ، فقـــد تضمن البيان المشترك الايرانى السوفيتى دلائل كثيرة على العلاقات المتوترة ، واسفرت زيارة بودجورنى لتركيا عـن

بيان مشترك محدود للغاية تضمن اعلانا حول مبادىء علاقة حسن الجوار مع الحكومة التركية . ولم يكن الاتراك ــ الذين لم يكونوا سعداء على الاطلاق بسبب تأييد السوفييت القوى للاسقف مكاريوس أسقف قبرص وظهور الاسلحة السوفيتية فى أيدى الارهابيين الاتراك المناهضين للحكومة ــ فى حالة تمكنهم من الدخول فى علاقات قوية مع الاتحاد السوفيتى . ومن المؤكد أن احد المبادىء التى وردت فى الاعلان نصت على أن الاعلان الاخير لا يؤثر بطريقة أو بأخرى على الالتزامات التى انتهجتها كل دولة من قبل فيما يتعلق بدول العالم الثالث . وبالنسبة للمنظمات الدولية ، وهذا يؤكد ضمنا علاقة تركيا الوثيقة المستمرة بالولايات المتحدة الامريكية واشتراكها فى حلف شمال الاطلسى .

وفى الوقت الذى كان الاتحاد السوفيتى يحاول فيه دعم موقفه فى مكان آخر من العالم العربى ، ويحاول الاحتفاظ بالتوازن فى علاقاته بين ايران وبين العراق ، ظلت علاقاته مع الرئيس السادات فى مصر متوترة للغاية . وبالرغم من تكهنات السوفيت فان مصر لم تتلق ضربة انتقامية من جانب اسرائيل (ربما يكون لتجنب احتمال ان ترغم مصر على اعادة السوفييت) فمن الواضح ان السادات قد انزعج نتيجة لاحداث ميونخ وبفضل محاولاته كسب دول غرب أوروبا والولايات المتحدة الامريكية فى ذلك الحين على الاقل الى جانبه مما اسفر عن التنديد بهما فى الداخل وفى جميع أنحاء العالم العربى فى حماية سوريا ولبنان من

الهجمات الاسرائيلية ، قرر الرئيس السادات ان يحـــاول تثبيت علاقات مصر مع الاتحاد الســـوفيتى قبل ان تزداد تدهورا .

ومن ثم ففى ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٧٢ وفى الذكرى الثانية لوفاة عبد الناصر ، القى الرئيس الســـادات خطابا سياسيا هاما حاول فيه استعادة جـــزء من قوة الدفـــع للاحداث فى الشرق الاوسط ففى المقام الاول وجه نـــداء لاقامة حكومة فلسطينية فى المنفى ، الامـــر الذى تعهـــد بتأييده ، وقال ان الانقسامات داخـــل الحركة الفلسطينية تلحق بها الضرر أكثر من اسرائيل او الملك حسين . وثانيـــا رفض رسميا الاقتراح الذى قدمـــــه وليام روجرز وزير الخارجية الامريكى فى اوائل الشهر فى الامم المتحـــدة . واعلن الزعيم المصرى انه بعث برسالة الىبريجنيف اتسمت فى مضمونها بروح الصداقة والود . وعلى اية حال فقد اعلن بعد يومين فقط من خطاب الرئيس السادات ان رئيس الوزراء المصرى (عزيز صدقى) ســيقوم بزيارة للاتحـــاد السوفيتى يوم ١٦ من اكتوبر . بيد أن اللهجـــة التى كانت تستخدمها الصحافة المصرية ظلت فاترة بوجه عام تجـــاه الاتحاد السوفيتى حتى عشية سفر رئيس الوزراء لموسكو ، عندئذ صرح الرئيس السادات فى حـــديث صحفى نشرته مجلة الحوادث اللبنانية فى ٥ من اكتـــوبر بأن التســـوية السلمية كمـــا يراها الاتحـــاد السوفيتى معناها الاستسلام

للشروط الامريكية والاسرائيليـــــة ، واشتكى علنا من أن الروس قد اصبحوا عبئا علينا .

وبعد يومين ، حذر من موقف السوفيت رئيس تحرير جريدة اخبـار اليوم المصرية وقلل من قيمــة المساعدات السوفيتية وجادل بأن الروس قد استغلوا وضعهم فى مصر لاستغلال المصريين .. لقد استفاد الاتحاد الســـوفيتى من مركزه العسكرى فى مصر ، حتى لقد أصبح قوة قائمة فى البحر المتوسط . بالاضافة الى ذلك ان المطـارات المصرية ادت الى الاستغناء عن صنع حامـلات الطائرات التى كانت ستكلف الشعب السوفيتى ملايين الدولارات . واستخدم الاتحاد السوفيتى هذه المطارات لاغراضه الدولية ونقل عن طريقها الاسلحة الى الهند خلال حربها مع باكستان واستفاد الاتحاد السوفيتى ايضا باعتبار مصر عنصرا هاما فى تقاربه مع الولايات المتحدة ، هذا التقارب القائم على تجميدالموقف فى الشرق الاوسط . ومن ناحية اخرى ، لم تستفد مصر شيئا من هذه الصداقة التى لم تمنع هجرة اليهود السوفيت الى اسرائيل .

بيد أن هذا كان آخر تعليق سلبى فى الصحافة المصرية قبل سفر رئيس وزراء مصر صدقى .

ومهما كانت شدة حرص الرئيس السادات على تحقيق هذا النجاح ، فقد بدا أن هناك حدودا حقيقية لما انجـزته زيارة صدقى لموسكو ، ففى المقام الاول ، وعلىعكس المرحلة

السابقة التى قام بها فى يوليو ، لم يجتمع رئيس الوزراء المصرى وبريجنيف ، ولكن تم الاكتفاء فقط باجتماعه بكوسيجين وبودجورنى . وثانيا لم يرد ذكر لاستمرار المساعدات السوفيتية ، سواء اكانت عسكرية أم اقتصادية، فى البيان المشترك الذى صدر بعد انتهاء الزيارة ، والذى وصف المحادثات بأنها دارت فى جو من الصراحة والتفاهم المتبادل . والشىء الوحيد الذى يستطيع المصريون ان يبرزوه من هذه المحادثات ليس سوى تعهد شكلى من جانب الروس ــ الذى نراه دائما فى البيانات المشتركة ــ بأن الزعماء الروس قد قبلوا الدعوة الموجهة اليهم لزيارة مصر، بالرغم من عدم تحديد موعد لهذه الزيارة .

ومع ذلك فانه بفضل مذبحة ميونيخ وزيادة حدة الصراع بين العرب واسرائيل الذى جاء فى أعقاب هذه المذبحة ، تحسن الموقف السوفيتى فى الشرق الاوسط بشكل ملحوظ بعد ان كان قد وصل الى الحضيض فى أوائل سبتمبر . والحقيقة ، ان موقف السوفيت تحسن بدرجة كبيرة نتيجة للتطورات التى سبقت مذبحة ميونخ ففى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٧٢ عندما أعلن الرئيس السودانى جعفر نميرى أن السودان سيعيد علاقاته الدبلوماسية كاملة مع الاتحاد السوفيتى فى نهاية العام .

السياسة السوفيتية فى الشرق الاوسط حتى انعقـــاد مؤتمـــــر القمـــة بين نيكسون وبريجنيف

وفى الوقت الذى قام فيه الروس بتحسين وضعهم فى الشرق الاوسط فى نهاية اكتوبر كانوا لا يزالون يواجهــون عددا من المشكلات فى محاولاتهم لتوسيع نفوذهم فى المنطقة . ففى المقام الاول كانت اليمن الشمالية واليمن الجنوبية على شفا حرب شاملة ، ولا بد من أن الروس كانوا مهتمين بشكل كبير بهذا الوضع ، فقد صرح رئيس وزراء اليمن الجنوبية ـ فى ذلك الوقت ـ فى حديث صحفى لمجـــلة « لوريان توجور » اللبنانية فى عددها الصادر يوم ٦ اكتوبر ١٩٧٢ بقوله : « أن الاتحاد السوفيتى لن يقف مكتوف اليدين فى حالة غزو اليمن الجنوبية » .

ولم تكن العلاقات على ما يرام بين ايران والعـــراق ، وجعلت الاشتباكات الخطيرة بين الاكراد وقوات الحكومة العراقية الموقف فى الخليج الفارسى اكثر صعوبة بالنسبـــة لواضعى السياسة السوفيت ، وكانت هناك مشكلة أخرى تواجه الروس وهى وضعهم المحدود فى مصر التى ما تزال تعتبر أهم دولة فى الشرق الاوسط بالرغم من المشكلات التى تواجهها . واخيرا استمرار قلق الروس بالنسبة للنفـــوذ الامريكى فى المنطقة واحتمال ان توافق مصر على تســـوية لأزمة الشرق الاوسط .

وفى محاولة لتسوية الصراع اليمنى ، أيد الاتحـــاد السوفيتى قيام وحدة بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية طالما أن هذا سيمكن الروس من تجنب دخولهم فى حرب ، بينما لا تزال موســـكو قادرة على الاحتفاظ بنفوذها على المنطقة الاستراتيجية التى تقع عند مضيق باب المندب ، وتسيطر على مدخل البحر الأحمر ، والتى ستزداد اهميتها بشكل خطير اذا ما أعيد فتح قناة الســويس . وقد أجلت المحادثات التى كانت تهدف الى وقف القتال بيــن اليمـــن الجنوبية واليمن الشمالية ، حتى منتصف نوفمبر ــ وحتى يتمكن سالم على ربيع رئيس جمهورية اليمن الجنوبية عندئذ من زيارة موسكو فى نهاية الشهر . وقد جاء فى البيـــان المشترك الذى صدر عقب انتهاء الزيارة فى ٢٦ من نوفمبر « أن الجانب السوفيتى يرحب بكل رضاء بالاجراءات التى تتخذها اليمن الجنوبية لانهاء العمليات العسكرية على الحدود مع اليمن الشمالية ، ويؤيد الجهود التى تبذلها جمهـورية اليمن الجنوبية » ومن ثم كانت الزعامة السوفيتية أكثر من راضية عندما وقعت اليمن الشمالية واليمن الجنوبية اتفاقية لاقامة وحدة بينهما ، بيد أن هذا الاتفاق كان اتفاقا هشا .

ومع أن القادة السوفيت اثبتوا قدرتهم على احراز نجاح معقول فى تهدئة التوتر بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية فقد ازدادت حدة التوتر السوفيتى الايرانى منـــذ توقيع المعاهدة السوفيتية العراقية فى ابريل سنة ١٩٧٢ ، كما أن القرار الذى أتخذه السوفييت لاعطاء العراق مزيدا من

الاسلحة خلال زيارة البكر لموسكو فى سبتمبر قد اغضبت الايرانيين .

والعامل الآخر الذى زاد من توتر العلاقات السوفيتية ـ الايرانية ، هو تأييد فى ذلك الوقت للجانبين المتصارعين فى حرب العصابات الناشبة فى اقليم ظفار فى عمان . فبينما أيد الاتحاد السوفيتى (والعراق وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل بامدادات عسكرية ، أمدت ايران قوات سلطان عمان بالقوات والمعدات . ومما يسترعى الانتباه ذلك الوصف الذى وصفه الاتحاد السوفيتى رسميا لقوات السلطان فى عام ١٩٧٢ ، فقد أشار الى المرتزقة البريطانيين ولم يشر الى القوات الايرانية ، ربما فى محاولة للتقليل من شأن الخلافات القائمة فى هذه المنطقة .

وقد ارغمت الاحداث التى وقعت فى فبراير ومارس عام ١٩٧٣ الروس على الاسراع فى بذل جهودهم الدبلوماسية للسيطرة على النزاع العراقى ـ الايرانى ، ففى ١٠ من فبراير شعرت كل من العراق والاتحاد السوفيتى بالحرج بسبب فضيحة العثور على ٣٠٠ مدفع و ٦٠٫٠٠٠ طلقة سوفيتية الصنع فى السفارة العراقية فى اسلام اباد بباكستان . وقد كان واضحا ان هذه الاسلحة متجهة الى جبهة تحرير بلوخستان التى قالت ان بلوخستان المستقلة قد تكونت من الاراضى المكتظة بسكان بلوخستان ، تلك الاراضى

التى تسيطر عليها الآن كل من ايران وباكستان . وقد أشار القادة الروس ــ الذين أخذت علاقاتهم تتحسن تدريجيا مع نظام بوتو فى باكستان عقب الحرب الهندية ــ الباكستانية فى عام ١٩٧١ ــ الى هذا الحــــادث وقالوا انه « حادث مؤسف » بالرغم من انه قد ساءهم هــذا الـكشف العلنى لتورطهم ،ولو أن ذلك كان ضئيلا ــ فى محاولة تقسيــم اراضى الدولتين اللتين كانوا يحاولون الابقاء على عـــلاقات طيبة مع كل منهما .

وبعد أقل من اسبوعين صدر الاعـلان الذى يفيد بأن ايران قد ابرمت اكبر صفقة اسلحة كانت الوحيدة من نوعهــا مع وزارة الدفاع الامريكيـــة ، وتقـدر ببليونى دولار أمريكى ، وتتضمن طـــائرات هيليوكوبتر ، وسفنا حربية ، وطائرات اعتراضية تفوق سرعتها سرعة الصوت ، وطائرات قاذفة من طراز فانتوم ، وطائرات شحن من طراز سى ــ ١٣٠ ، الى جانب معدات عسكرية أخرى . وواجهت منطقة الخليج سباقا فى مجال التسليح أخذ شكلا انتقاميا . وفى محاولة لتخفيض سباق التسليح ولتجنب مطالبـــة العراق بأسلحة جديدة صرح كوسيجيـــن رئيس الوزراء السوفيتى أثناء الزيارة التى قام بها لايران للاحتفال بافتتاح مصنع اصفهان للحديد السوفيتى الصنــع قائلا : « اننـــا لمسرورون لتطور العلاقات بين بلدينا ونعتزم أن نبــذل كل ما فى طاقتنا لتدعيم العلاقات السوفيتية ــ الايرانية فى المستقبل ... واننا لنشعر بأن (هذا) يتفق ايضا ومصالح

شعوب الدول الأسيوية الأخرى ، ولا سيما تلك الدول التى تتاخم الاتحاد السوفيتى وايران بقـــدر ارتباط أمنهـــم وسلامهم فى المستقبل الى حد ما بالسياســـة الخارجية لجيرانهم ، ومن بينهم الاتحاد السوفيتى وايران ، ولـكن اذا أردنا أن لا يقوم أمن الدول على أساس سباق التسليح ـ لانه لا يمكن للامن الحقيقى أن يقوم على مثل هذا الاساس ، وانما على اساس مواصلة تخفيف حدة التوتر وتدعيم الثقة المتبادلة بين الدول ، لذلك فان هناك حاجة الى جهود كل طرف من الاطراف المعنية . وعلى العكس فان السياســـة المتشددة التى تنتهجها اية دولة ستشعل بلا شــك الموقف فى الاقليم بأكمله ، بل وفى جميع انحـــاء العالم مما يرغم جيرانها على اتخاذ نوع ما من اجراءات الدفاع عن مصالحها القوميـــة » .

بيـد انه فور عودة كوسيجين الى موسكو بدات العراق الصراع فى الخليج ، ففى ٢٠ من مارس عبـــرت القـــوات العراقية الاراضى الكويتية ، واستولت على مـــوقعين على الحدود الكويتية . وفى اليوم التالى قام صدام حسين نائب رئيس جمهورية العراق بزيارة سريعةلموسكو ليناقش الموقف مع الروس . ويمكن أن نلحظ عدم تحمس السوفييت ازاء الاجراء العراقى ، وذلك من التعليق الذى نشرته نيوتايمز حول هذا الموضوع (متبعة فى ذلك الاسلوب الذى ينتهجه السوفييت للاعراب عن عدم رضائهم بطريقة غير مباشرة

عنـدما يستشهدون فيه بعواصم عربيـة) حيث جاء فى التعليق :

« ان النزاع أحدث قلقا فى العواصم العربيةبنفسالقدر الذى استغلته الدوائر الصهيونية والاستعمار لبذر بـذور الشقاق فى العالم العربى ولاضعاف جبهة النضال العربيـة لازالة آثار العدوان الاسرائيلى . وقـد حث زعمـاء بعض الدول العربية الرئيس العراقى وامير الكويت على بذل كل جهد ممكن لحل الصراع القائم دون ابطاء » .

وفى الوقت الذى انسحبت فيه القوات العراقيـة من الكويت ـ بالرغم من عدم التوصـــل الى اتفاق نهائى ـ أوضح الشاه ان ايران ستساعد الكويت اذا طلبتالمساعدة. وهكذا نجد أن الصراع بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية وبين ايران والعراق كل هذه الصراعات تمثل مشكلة خطيرة للمخطط السياسى السوفيتى نحو ازمة الشرق الاوسـط بينما المشكلة الرئيسية بالنسبة للسوفيت كانت هى النفوذ الامريكى فى الشرق الاوسط والاحتمال غير المؤكد فى أن تتوصل أمريكا ومصر الى اتفاق حول الشرق الاوسط يلحق الضرر بالمصالح السوفيتية ولتجنب مثـل هـذا الاحتمال ضاعف القادة السوفييت من جهودهم فى تشجيع العرب على توحيد جهودهم ضد سرائيل . ويبدو انالتكتيك السوفيتى يتلخص فى انه ما أن يعمل العرب صفا واحدا ، حتى تتحول نظم الحكم المعتدلة فى موالاتها للروس مثل سوريا والعراق (الى جانب منظمة تحرير فلسطين الذى يرند رئيسها ياسر

عرفات صدى السياسة السوفيتية فى مقابل حصوله على مساعدات اقتصادية وعسكرية سوفيتية) دون تطبيق اية سياسة مناهضة للروس .

ومن حسن حظ الروس ، ان اثنين من التطورات التى حدثت فى الشرق الاوسط ساعدا على تسهيل السياسة التى ينتهجونها ، فمن ناحية ، وصل الصراع العربى الاسرائيلى الى مرحلة جديدة من التوتر بعد أن اسقطت اسرائيل طائرة ليبية فى فبراير ، وشنت غارة على منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت فى ابريل . اما التطور الثانى فهو محاولة مصر انتهاج سياسة تسعى الى توحيد صفوف العرب من أجل مواجهة اسرائيل . وذلك فى الوقت الذى كانت الزعامة السوفيتية تعمل من أجل اقامة وحدة عربية على أساس مناهض للامبريالية . وقد عقد الرئيس محمد انور السادات عددا من المؤتمرات العربية الشاملة فى نوفمبر وديسمبر فى محاولة لبناء جبهة عربية موحدة ضد اسرائيل ، وبعد أن سعى اولا للحصول على مساندة سوفيتية . ثم مساندة امريكية ضد اسرائيل ولكنه فشل فى هذين الطلبين وكان قرار الرئيس السادات بأن الحل الوحيد امام مصر وهو حشد الطاقة العربية ـ بما فى ذلك سلاح البترول ـ ضد اسرائيل ومؤيديها . وفى خطاب سياسى هام ألقاه الرئيس السادات يوم ٢٨ ديسمبر صرح بأن مصر « ادركت حدود المعونة السوفيتية » وانها سوف تتخذ « مبادرات جديدة لجعل المعركة معركة عربية

شاملة » واشار السادات ـ ردا على مطالب سـوريا بأن تدخل مصر الحرب فورا لرفع الضغط عن سوريا المتورطة فى معارك يومية تقريبا مع اسرائيل فى ذلك الوقت ـ الى أن مصر لن تسمح للظروف الدولية بأن تقوض مجرى الاحداث فى الشرق الاوسط بل ينبغى أن تفرض ارادتها على الظروف .

وبينما تسعى مصر الى تعبئة الدول العربية من أجل المواجهة مع اسرائيل وقع يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٧٣ حادث اثار المشاعر فى جميع انحاء العالم العربى ضد اسرائيل لدرجة الغليان وذلك نتيجة انفعال اسرائيل بسبب تهديدات الغدائيين الفلسطينيين لها بخطف طائرة وتحطيمها فى احدى المدن الاسرائيلية فقد أسقط السلاح الجوى الاسرائيلى طائرة ليبية كانت فى طريقها من طرابلس الى القاهرة ، وضلت طريقها فى أعماق سيناء التى تحتلها اسرائيل ، وقد رفض قائدها أوامر اسرائيل اليها بالهبوط . وانتهزت روسيا هذا الحادث للربط بين الولايات المتحدة الامريكية والتصرف الاسرئيلى فى محاولة للتقليل من شأن الجهود الامريكية للوساطة فى صراع الشرق الاوسط ، ثم فى اضعاف الموقف الامريكى فى الشرق الاوسط . وكما صرح « كاتن » كاتب المقال الافتتاحى فى نيو تايميز بقوله : « ان الصحافة العالمية ربطت مباشرة بين هذا الهجوم الجوى الاجرامى واقتحام القوات الاسرائيلية لبنان فى اليوم نفسه ، وقد أظهر هذان الهجومان التصعيد

الخطير للعدوان الاسرائيلى فى الشرق الاوسط . والواقع ان تل ابيب توسع من مجال أعمالها العـدوانية على الدول العربية التى لم تتعرض للهجـوم فى عام ١٩٦٧ . وهنـاك أيضا هذه النقطة وهى أن اسرائيـــل قد قامت بهـذه الاستفزازات الجـديدة عشية زيارة جولدا مائير للولايات المتحدة . وتسعى الحكومة الاسرائيلية باثارتها هذا التـوتر العسكرى الى خلق موقف تستطيع من خلاله ان تنتـزع بسهولة المساعدات من مؤيدى الصهيونية فى الدول الاخرى، ولا سيما الولايات المتحدة الامريكية ، واصبح من الواضح الآن ان مؤيدى حكام اسرائيل يشتركون فى تحمل مسئولية جرائمهم » .

هذا وقد زاد توتر الموقف حدة فى الشرق الاوســط عندما قتل الفلسطينيون اثنين من الدبلوماسيين الامريكيين فى السفارة العربية السعودية فى الخرطوم بالســودان . وبعد اسبوع من وقوع هذا الحادث ، وربما يكون ردا عليــه الى حد ما ، أعلنت الولايات المتحدة بيعها ٢٤ طائرة فانتوم أخرى و ٢٤ قاذفة قنابل من طراز سكاى هوك لاسرائيل . وبعد هذا التصريح ـ الذى استغله السوفيت كمصــدر لدعايتهم ـ اعاد الرئيس السادات تشكيل حكومته وتولى هو بنفسه رئاسة الوزراء الى جانب منصب الحاكم العسكرى. وقد صرح السادات بأنه قرر على مضض أن يتولى الزعامة بنفسه عندما بلغه التزام امريكا بتسليم اسرائيل طائـرات سكاى هوك وفانتوم أخرى .. كما ذكر الرئيس الســادات

بأن الحرب لن تتأخر وان علاقة مصر بالاتحاد السوفيتى قد استؤنفت على « نمط سليم من الصداقة » .

وقام السادات ـ فى محاولة لارساء دعائم موقفه الداخلى قبل شن حرب مع اسرائيل ـ بعملية تطهير على نطاق واسع للاتحاد الاشتراكى العربى . وبدأت تعليقات السوفييت على التطورات الداخلية فى مصر تأخذ لهجة سلبية هدامة بشكل متزايد ، فقد قام الرئيس السادات ، عن طريق تشجيعه الاستثمارات الاجنبية وراس المال المحلى بوضع برنامج لاستعادة النظام الراسمالى الى مصر ، بيد انه من الواضح أن الروس قرروا الا يجعلوا مثل هذه العوامل السلبية تقف فى سبيل تحسين العلاقات المصرية ـ السوفيتية . ومرة اخرى ، وفى نهاية شهر مارس بدأت الاسلحة تتدفق الى مصر ولكن كان المثير للاهتمام ان الاتحاد السوفيتى لم يرسل لمصر انواع الاسلحة التى كان قد طلبها الرئيس السادات (قاذفات مقاتلة ، وصواريخ أرض / أرض . وبعد أن بدأت الاسلحة السوفييتية فى الوصول الى مصر باطراد فان السادات حول اهتمامه الى تطوير علاقته مع الملك فيصل ملك العربية السعودية ، الذى يعتبر تأثير بتروله على الولايات المتحدة عاملا خطيرا فى استراتيجية مصر ضد اسرائيل . وربما يرجع استعداد فيصل لاستخدام سلاح البترول جزئيا الى الضغوط التى فرضها عليه تصاعد الصراع العربى ـ الاسرائيلى فى الشرق الاوسط الذى وصل الى ذروته مرة اخرى فى ٩ من ابريل

سنة ١٩٧٣ عندما أغار الكوماندوز الاسرائيليون على بيروت وقتلوا ثلاثة من زعماء المقاومـــة الفلسطينية الذين اعتقد الاسرائيليون انهم العقل المدبر وراء الحملة التى شنت ضـد المواطنين الاسرائيليين فى أوروبا وأنهم المسئولون عن مقتل الرياضيين الاسرائيليين فى مذبحة ميونخ .

وهناك عامل آخر ، ربما شجـــع فيصل على الاهتمام باستخدام سلاح البترول وهو التدهور السريع فى موقف شركات البترول الغربية فى الشرق الاوسط وزيادة ازمة الطاقة الحادة فى الولايات المتحـــدة الامريكيـــة ، وهى الموضـوعات التى احتـلت الصفحات الاولى من الصـحف العربية ، ففى ٢٣ من يناير سنة ١٩٧٣ اصـدر شاه ايران تعليماته الى شركات البترول التى تعمل فى ايران ويمتلكها الغرب ـ بما يمكن أن يكون أكثر من تهديد ـ انه فى حالة ما اذا لم توافق تلك الشركات على الشروط الايرانيـــة فلن يصل البترول الايرانى اليها عندما تنتهى عقودها الحاليـة وقد أذعنت شركات البترول كلها لشـاه ايران بحلول أول مارس من العام نفسه .وقبل ذلك التاريخ بيوم واحد كانت شركات البترول التى يمتلكها الغرب والتى كونت شركةبترول العراق قد وقعت اتفاقية مع الحكومة العراقية وافقت فيها تلك الشركات ، فى خنوع ، على تأميم حقولها فى كركوك مقابل ١٥ مليون طن من البترول . وفى الوقت نفســـه أستطاع الرئيس الليبى الوقيعة بين شركات البترول الغربية فى بلاده وبذلك استطاع ان يضمن السيطـــرة عليها فى

الوقت الذى رفع فيه سعر البترول الليبى . ويبدو أن شركات البترول لم تستطع، هى أو الحكومات على السواء، أن تفعل شيئا ازاء هذا الاجـراء . والشيء المثير للانتبـاه انه عقب تلك الاحداث حثت « برافدا » فى ١٤ مارس سنة ١٩٧٣ الولايات المتحدة الامريكية على حل المشكلاتالخاصة بالطاقة باستثمار البترول السوفيتى والغاز الطبيعى .

ومهما تكن القضية ، ففى منتصف ابريل هـدد الملك فيصل الولايات المتحدة الامريكية بأن السعـودية لن تزيد من انتاج بترولها لمواجهة احتياجات امريكا ما لم تعـدل الولايات المتحدة الامريكية من موقفها تجاه اسرائيل.وعقب هذا التهديد هرعت كل من الولايات المتحـدة الامـريكية وبريطانيا وفرنسا الى بيع أسلحة حديثة للملك فيصـل ــ وهو تطور زاد من ابراز أهمية السعـودية فى الشرق الاوسط ، وزاد من تعرض الغرب لاستغلال سلاح البترول ضده . وبالرغم من أن الروس كانوا يحثـون العـرب على استخدام سلاح البترول ضد الولايات المتحدة الامريكيـة ويرسلون امدادات من الاسلحة لهم فانه يبـدو انهم غير مستعدين بعد لمساندة مصر فى حرب ضد اسرائيل ، وبدلا من ذلك فمـع اقتراب زيارة بريجنيف لواشنطن عمـدت الزعامة السوفيتية الى محاولة التقليل من شأن اسرائيـل ومؤيديها منالامريكيين فى الامم المتحدة ، وفى غيرها من المحافل العامة ، بما فى ذلك تلك التى عقدت بصفة خاصة لهذا الغرض . وربما كان نشوب قتـال عنيف فى لبنان فى

أوائل مايو ـ الذى أثار الفدائيين الفلسطينيين ومؤيديهم من اللبنانيين ضد الحكومة اللبنانية ـ عاملا آخر فى حث الاتحاد السوفيتى للعرب بالتزام جانب الحذر .

وفى الوقت الذى كان بريجنيف يستعد فيه للذهاب الى واشنطن فان النقد لعدم كفاية مساندة السوفييت للقضية العربية بدأ يظهر مرة أخرى ووصلت سياسة الوفاق الامريكى ـ السوفيتى لدرجة انه فى ١١ من يونيو تمت دعوة أحد الصحفيين السوفييت لحضور احتفال تغيير قيادة الاسطول السادس الامريكى ، وذلك على ظهر حاملة الطائرات جون كنيدى فى البحر المتوسط .

وهكذا ففى الوقت الذى كان ينتظر فيه عقد مؤتمر قمة بين نيكسون وبريجنيف كان موقف السوفيت غير واضح ، فمن ناحية تدهور موقف الولايات المتحدة الامريكية بشكل خطير ، الامر الذى يرجع الى زيادة اعتمادها على البترول العربى واستعداد السعودية الواضح لاستخدام سلاح البترول . هذا بالاضافة الى أن الصراع العربى ـ الاسرائيلى الذى تزداد مرارته قد عبأت المشاعر فى الشرق الاوسط لدرجة ان ليبيا أغلقت حقول بترولها لمدة ساعة فى منتصف مايو احتجاجا على تأييد الغرب لاسرائيل . ومن ناحية أخرى فبينما تحسنت العلاقات السوفيتية ـ المصرية فان التوتر ما يزال يسودها.واخيرا فان تصعيد الصراع بين ايران والعراق فى منطقة الخليج

زاد من خطورة الغزو العراقى للكويت واستمر فى تعقيـــد مهمة الاختيار أمام الزعامة السوفيتية .

من مؤتمر القمة حتى نشوب حرب اكتوبر ١٩٧٣

لم يكن نصيب الشرق الاوسط فى اجتماع مؤتمـــر القمة الذى عقد فى يونيو سنة ١٩٧٣ بأفضـــل كثيرا عمـــا حدث فى مؤتمر القمة الذى عقـــد فى عام ١٩٧٢ . والواقع أن البيان المشترك النهائى الذى صدر فى ٢٤ من يونيو لم يتضمن سوى ٧٨ كلمة عن الموقف فى الشرق الاوسط من جملة الكلمات التى تضمنها البيان البالغ عددها ٣٢٠٠ كلمة ويبدو كما لو كان نيكسون وبرجنيف ارادا أن يقللا من شأن الصراع بطريقة متعمدة خشية أن يؤثر ذلك على مســـار الوفاق بينهما . وهكذا لم يذكر البيان المشترك قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ — وهو أساس السياسة الســـوفيتية للتوصل الى تسوية الصراع العربى — الاسرائيلى . وقـــد جاء فى البيان المشترك ما نصه :

« لقد أعربت الاطراف المعنية عن قلقها العميـــق ازاء الموقف فى الشرق الاوسط ، وتبادلت الآراء فيما يتعلق بأساليب التوصل الى تسوية لأزمة الشرق الأوســـط . واوضح كل جانب موقفه من هذه المشكلة. ووافق الجانبان على مواصلة جهودهما لتحقيق أسرع تسوية ممكنة لأزمـــة الشرق الأوسط ولا بد من أن تتمشى هذه التسوية مـــع مصالح كل دول المنطقة بما يتفق واستقلالها وسيادتها .

ويجب أن تضع فى اعتبارها المصـــالح الشرعيـــة للشعب الفلسطينى » .

وكما كان متوقعا ، فان رد الفعل فى مصر أزاء هذا البيان المشترك ـ كان سريعا ومريرا . والحقيقة ان رد الفعـــل العربى ازاء تناول مؤتمر القمة للصراع العـربى الاسرائيلى كان سلبيا لدرجة ان الروس شعروا بأنهم مضطـرون الى نشر بيـان خاص عن السياسة السوفيتية تجـاه الشرق الاوسط ، نشرته تاس فى ٢٧ من يونيو وكررت فيـــه المفاهيم الرئيسية للسياسة السوفيتية التىكررتالاعراب عنهـــا فى الماضى مرارا ، بمـــا فى ذلك ضرورة انســحاب القوات الاسرائيلية الى حـدود ما قبـل ١٩٦٧ « وحـل سلمى » قائم على أساس قرار الامم المتحـــدة رقم ٢٤٢ والاعتراف بالحقوق والمصالح الشرعية للفلسطينيين .

ولم يكن رد الفعل العربى المتسم بالمرارة تجاه الافتقار الواضح للتأييد السوفيتى فى مؤتمر القمة ، هو المشكلة الوحيدة التى واجهها القادة السوفييت فى الشرق الاوسط عقب اجتماع بريجنيف ـ نيكسون ولكن زادت حدة الصراع الايرانى ـ العراقى مرة أخرى عندما أقترب الخـلاف بين الاكراد والحكومة العراقية من حافة الحـرب ، وزاد من تعقيـد الامـور بالنسبة للروس وقوف الولايات المتحـدة الامريكية والصين الى جانب ايران ، وصرح وزير خارجية الصين عند زيارته ايران فى ذلك الوقت بأن ايران لديهـا

مبررات كافية لتكريس السلاح فالموقف ـ كما قال الشاه ـ على الجانبين الشرقى والغربى لايران يشكل تهـديدا خطيرا لها . ثم انه فى أواخر يونيو هاجم وزير خارجية ايران ، فى تقريره السنوى ، العراق واتهمها بالقيام بانتهـاكات لا حصر لها على الجبهة فى كردستان وغيرها .

ومع ذلك فقد كانت اكثر المشكلات خطورة بالنسبـة للروس هى محاولة الاطاحة بنظام حكم البكر فى ٣٠ من يونيو الذى تورط فيها الرجـــل رقم ٣ فى نظام الحكم العراقى ـ عبد الخالق السامرائى . وقد حثت صحيفـة نيوتايمز عندما نشرت هذا الحادث نظام حكم البكر عـــلى أن يتعلم من هذه التجربة باقامة « جبهة وطنية تقدمية » تضم حزب البعث العراقى والحزب الشيوعى العراقى ، وحزب الاكراد الوطنىالذى طالما تعهد باقامته . وقد وافق نظام حكم البكر فى يوم ١٧ من يوليو على توقيع معـاهدة بأقامة الجبهة الوطنية ، وبينما وافق الشيوعيون العراقيون على التوقيع على هذه المعاهدة ، رفض الاكراد ذلك ، وتطور العداء بين الاكراد والحكومة . وفى نفس اليوم الذى تم التوقيع فيه على اقامة جبهة وطنية فى العراق ، وقع حادث آخـر رحب به الروس ، وهـــو الاطاحـــة بالملكية فى افغانستان ، ومجىء الجنرال محمد داود الـذى أعلن أن افغانستان أصبحت جمهورية . وكان داود ـ أثناء شغله لمنصب رئاسةالوزراء فيما بينسنة ١٩٥٣ وسنة ١٩٦٣ ـ قد اقام علاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتى ، وكان معروفا

ايضا انه يشجع حركة باشتونستان الانفصالية فى القاطعة الواقعة شمال غرب باكستان .. فهل سيعمل داود على احياء هذه السياسة ؟ لقد أشار الخطاب الذى القاه فى ١٧ من يوليو الى انه سيفعل ذلك ، وستصبح مشكلات امن باكستان ـ المعقدة بالفعل نتيجة لمشكلة بلوخستان ـ اكثر خطورة ، ومن ثمة تؤدى الى تعقيدات مشكلات أمن بالنسبة لايران أيضا .

وقام عباس هوفيدا رئيس وزراء ايران بزيارة للاتحاد السوفيتى فى أوائل اغسطس لبحث الموقف فى الشرق الاوسط بيد أنه ظهر ان نظام الحكم العراقى ـ القلق بسبب زيادة حدة الصراع الداخلى مع الاكراد الذين يواصلون رفضهم الانضمام الى الجبهة الوطنية ـ كان فى حاجة الى مزيد من التأكد . وفى نهاية سبتمبر بعث الاتحاد السوفيتى عددا من قاذفات القنابل الى العراق .

وفى الوقت الذى يشتد فيه الصراع العراقى ـ الايرانى وقد زاد من حدته النضال المستمر بين الحكومة العراقية والاكراد « الذين تساندهم ايران » فان الزعامة السوفيتية كان عليها أن تواجه نداءات الرئيس السادات الملحة المتزايدة لشن الحرب والجهود التى يبذلها الرئيس المصرى لتوحيد الدول العربية لتحقيق هذا الهدف .

وفى ١١ من يوليو قام مستشار الرئيس السادات لشئون الامن القومى بزيارةموسكو لاجراء محادثات وصفت

بأنها « صريحة وودية » وبعد عودته صرح بأن مصر والاتحاد السوفيتى توصلا الى اتفاق شامل حول علاقاتها فى المستقبل وفى تقييمهما للموقف فى الشرق الاوسط ، ولكن السادات فى خطابه الذى القاه عقب هذه الزيارة صرح بأنه غير راض تماما عن نتائج هذه الزيارة ، وقد أبلغ الروس مستشار الرئيس السادات بأنه من المتوقع أن يستمر الوفاق ما بين ٢٠ الى ٣٠ سنة . كما حذر الرئيس السادات القادة السوفييت فى خطاب ألقاه يوم ٢٢ يوليو عبر راديو القاهرة من أن الوفاق سيؤدى الى عزل الاتحاد السوفيتى عن « حركة التحرير الوطنية » ـ وهذا التحذير بكل تأكيد اغضب الروس .

وقد شعرت الزعامة السوفيتية برضاء نسبى لانهيار مشروع الوحدة المصرية الليبية الى أبعد الحدود . فبعد ان زار القذافى مصر لمدة اسبوعين فى أواخر يونيو وأوائل يوليو ، لم يحرز أى تقدم فى اقناع المصريين بأن مزايا الوحدة مع ليبيا تفوق مضارها ، فنظم مسيرة شعبية تضم ٢٠٫٠٠٠ ليبى اتجهت الى القاهرة لترغمها على الوحدة ، واذا به يجد أن هذا التكتيك قد فشل ايضا . وقد سر الزعماء الروس بوضوح لفشل قيام وحدة ليبية ـ مصرية وبسبب زيادة عزلة ليبيا فى العالم العربى. وبالتالى ففى الوقت الذى فترت فيه علاقة مصر وليبيا فقد اصبحت مصر اكثر ارتباطا بالسعودية ، وبلغت العلاقات

بينهما أوجها عندما قام الرئيس السادات بزيارة السعودية في ٢٣ من اغسطس ، تلك الزيارة التى من المحتمل أن يكون الرئيس السادات قد ابلغ فيها الملك فيصل بالحرب القادمة مع اسرائيل « بالرغم من ان هناك شكا فى ان يكون قد ابلغه بالموعد المحدد لشن هذه الحرب » وحث فيصل على استخدام سلاح البترول ضد الولايات المتحدة الامريكية .

وقد بلغ التوتر العربى ـ الاسرائيلى ذروته أثناء زيارة الرئيس السادات للسعودية وذلك عقب قيام اسرائيل بتحويل مسار طائرة تابعة للخطوط اللبنانية ، كانت فى طريقها من بيروت الى بغداد ، الى احدى القواعد الجوية لاسرائيلية . وكان هدف هذا الاجراء الاسرائيلى ـ الذى وصفه العرب بأنه « قرصنة جوية » ـ وهو أسر جورج حبش الزعيم الارهابى الفلسطينى . ويضاف الى ذلك ، أن تعرض أمريكا لخطر ضغط سلاح البترول العربى قد اصبح واضحا بشكل متزايد عقب سلسلة « الاحاديث عن الطاقة » التى رددها الرئيس الامريكى نيكسون والبيانات التى أصدرها مساعدوه وتناولت أزمة الطاقة التى أبرزت اجهزة الاعلام السوفيتية الكثير منها . والحقيقة ، ان اعتراف امريكا الرسمى بتعرضها لحظر استخدام البترول العربى قد وصل الى درجة خطيرة فى أوائل اغسطس . وفى حديث أدلى به جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الامريكى لشئون الشرق الاوسط ، للتليفزيون الاسرائيلى

يوم ٧ من أغسطس أبلغ فيه الاسرائيليين انه فى الوقت الذى تعتبر فيه المصالح الامريكية والاسرائيلية واحدة فى أحوال كثيرة ، فانها ليست متشابهة تماما دائما . وذكر البترول باعتباره أحد هذه الظروف غير المتشابهة. وعلى اية حال ، فان الملك فيصل أصبح فى نهاية شهر اغسطس مقتنعا بأن الوقت قد حان لاستخدام « سلاح البترول ». وفى حديث لتليفزيون هيئة الاذاعة الوطنية الامريكية حذر العاهل السعودى الشعب الامريكى من انه فى الوقت الذى لا يريد فيه أن يضع قيودا على صادرات البترول للولايات المتحدة الامريكية فان التأييد الامريكى الكامل للصهيونية يجعل من العسير للغاية الاستمرار فى امداد امريكا بالبترول أو حتى الاحتفاظ بعلاقات ودية معها . وبالرغم من تهديدات الملك فيصل باستخدام سلاح البترول ، فانه فى أوائل سبتمبر أصبح ارتباط مصر المتزايد بالسعودية يشكل قلقا بالنسبة للزعامة السوفيتية، التى تغيرت نظرتها الى السعودية تماما . واعتبرتها من الدول التى تحتل مكانا بارزا فى مخططات الامبريالية العالمية فى محاولاتها لعزل الدول العربية عن الاتحاد السوفيتى ، وعن بقية المجتمع الاشتراكى .

وقد اتهم راديو ليبيا — فى لهجة مبتذلة — الملك السعودى بأنه « عميل للامبريالية ، وخائن للقضية العربية » . وانتقدت اذاعة ليبيا بمرارة نظام الحكم المصرى بسبب مساعيه لاقامة علاقات وطيدة معه . وفى الوقت

الذى اتجهت فيه مصر نحـــــو السعودية سعت الزعامة السوفيتية فى اتجاه توطيد علاقاتها مع منظمة التحـــرير الفلسطينية التى أصبحت مركزا من المراكز المناهضة للنفوذ الغربى . وفى أغسطس تمت دعوة ياسر عـــرفات رئيس المنظمة لحضور دورة الالعاب الجامعية العالمية التى عقدت فى موسكو ، كضيف شرف ، وتم السماح للمنظمـــة بفتح مكتب لها فى برلين الشرقية . وفى الوقت نفســـه كذبت الحكومة السوفيتية الشائعات التى ترددت عن انها تخطط لبيع كمية كبيرة من الأسمنت الى اسرائيل .

وبالرغم من اهتمام السوفيت الذى يبدونه لعرفـــات ولمنظمـــة التحـــرير الفلسطينية فانهم يعـــرفون ان مصر لا تزال هى المحرك الاول فى السياسة العربية ولذا فانهـــم فى اغسطس دخلوا فى حوار مع مصر حـــول نية الرئيس السادات الدخول فى حرب وقالوا ان الحـــرب ليست ضرورية لاستعادة الاراضى العربية المغتصبة طالما ان الوقت ليس فى صالح العرب ، وجادل الروس بأنه عن طـــريق استخدام سلاح البترول بحكمة ، يمكن ارغام الاسرائيليين على الانسحاب بأن تضغط عليهم الولايات المتحدة الامريكية وان مثل هذه النتيجة يمكن تحقيقها بدون الحـــرب ــ وكان الفضل فى ذلك راجعـــا الى الوفاق الســـوفيتى الامريكى . وقد أعرب عن هذا التفكير الصعب مساعـــد رئيس تحرير نيوتايمز فى مقـــال نشره فى أول أغسطس قال فيه :

« ان العرب شأنهم شأن أى فرد آخر يعرفون ثمن اراقة الدماء ، وتقف الظروف السائدة فى العالم ضد دفع مثل هذا الثمن من أجل ازالة آثار العدوان الاسرائيلى.

ان الجو الجديد الذى يسود الشئون العالمية ليس فى صالح العسكريين الاسرائيليين الى حد كبير ، فهو يعمل ضد مخططات التوسعيين ، وعلى سبيل المثال ، لاحظت الصحف العالمية مرارا انه مع انخفاض حدة التوتر فى أوروبا فان رصيد اسرائيل فى اوروبا يتضاءل » .

ومن الواضح أن المصريين لم يقتنعوا بمثل هذه الحجج ، ولا بالقرار السوفيتى الخاص بالسماح للكوريين الشماليين، والفيتناميين الشماليين ، بأن يقوموا بتدريب المصريين والسوريين ، وخرجت جريدة أخبار اليوم بسلسلة من المقالات تهاجم فيها الوفاق لانه يخضع المصالح العربية لمصالح الدول الكبرى . ويبدو ان الروس قد أخذوا مثل هذا الهجوم بجدية .. فقد نشر مساعد رئيس تحرير صحيفة نيو تايمز مقالا — فى عشية انعقاد المؤتمر الرابع لرؤساء دول عدم الانحياز الذى عقد بالجزائر يوم ٥ من سبتمبر — ووصف فى هذا المقال الفوائد التى ستعود على دول العالم الثالث من وراء انتهاج سياسة الوفاق الامريكى — السوفيتى فقال :

« انه بادخال التعايش السلمى فى العلاقات السوفيتية الامريكية سوف يزداد التأييد السوفيتى لحركات التحرير

الوطنية بدلا من أن يتضاءل ، وستزداد فرص التعاون بين الدول النامية . يضاف الى ذلك انه فى جو الوفاق ، وعندما تشعر الدول التى نالت استقلالها أخيرا ، بمزيد من الامان ، ويتحطم نظام التكتلات التى ينتهجها الاستعمار الجديد - سيكون امام هذه الدول فرص جديدة لتنتهج سياسة مستقلة داخليا وخارجيا » .

ولا بد من أن مساعد رئيس تحرير نيوتايمز قد شعر بالندم لهذا الكلام لانه بعد أقل من أسبوع سقطت حكومة « الوحدة الشعبية » التى يرأسها سلفادور الليندى فى شيلى ، وقتل الليندى الذى كان قد حاز بالاشتراك مع بريجنيف على جائزة لينين للسلام فى مايو . وأصبح من الواضح - بدرجة كبيرة - ان الزعامة السوفيتية قد أصيبت بخيبة أمل شديدة لسقوط حكومة الليندى . فقد كانت حكومة الليندى مثلا رائعا يؤكد ان سياسة الوفاق التى ينتهجها السوفيت حققت النتائج المرجوة منها ، اما الاطاحة بحكومة الليندى فهى تشير الى عكس ذلك . وقد أعترف الروس بالفعل فى مقال نشرته نيوتايمز عقب الانقلاب الذى وقع فى شيلى بتأثير هذا الانقلاب على سياسة الوفاق فقالت :

« لقد شن هجوم مركز ضد سياسة الوفاق ومنجزاتها العملية التى حققتها . والهدف من ذلك عرقلة تقدم هذه العملية التى لها أهميتها الحيوية بالنسبة للشعوب مهما كلف الامر ».[10]

وبعد مضى يومين على الانقلاب الذى ربطت وسائل الاعلام السوفيتية مباشرة بينه وبين الولايات المتحـــدة الامريكية وقعت معركة جوية هامة فى الشرق الاوسط بين اسرائيل وسوريا اسفرت عن اسقاط القوات الاسرائيلية ١٣ طائرة سورية بينما فقدت اسرائيل طائرة واحدة من جانبها ، وربما ادت هذه الاحداث جزئيا ـ على الأقل ـ الى خفض عدد مؤيدى سياســة الوفاق داخـــل المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفيتى ـ ربما الى درجـة انهم وافقوا على الاستجابة الى مطالب مصر وسوريا بأن زادوا من شحنات الاسلحة الســـوفيتية مثل الدبابات والصواريخ المضادة للطائرات الى كل من سوريا ومصر . ولا بد من أن الروس كانوا على علم بقرار الرئيس السادات فى أواخر سبتمبر بشن حرب على اسرائيل ـ وهو قرار مصرى وليس قرارا سوفيتيا ـ لانهم بداوا يسحبـــون فنييهم غير الاساسيين والمدنيين من كل من سوريا ومصر وقبل اندلاع الحرب فى ٦ من اكتوبر .

وربما كان السوفيت مدفوعين فى ذلك بعدة اعتبارات، ففى المقام الاول كان من المتصـــور ان الرئيس السادات يخادع مرة أخرى على نحو ما بدا فى عدة مرات فى الماضى وانه كان فى حاجة الى أسلحة اضافية اساسا من اجـل اعتبارات داخلية ، وثانيا انه اذا دخل الرئيس الســادات فى حرب وتعرض للهزيمة ـ وكان هذا هو شعور العـالم تقريبا الذى كان سائدا بين رجال المخـــابرات فى الدول

الغربية ، وربما بين عدد من الروس أيضا ــ فانه كان هناك احتمال قوى أن يسقط نظام حكم السادات ليحل محله نظام مصرى أكثر موالاة للسوفييت . وأقل مايمكن أن يقال هو أن نشوب حرب سوف يشعل مرة أخرى المشاعر العربية ضد الولايات المتحدة الامريكية ــ كما فعلت حــــرب ١٩٦٧ ــ وبالتالى يضعف موقف امريكا فى العالم العربى . وربمــا كانت الزعامة السوفيتية ترى احتمال ان تؤدى الحرب الى تأميم شركات البترول الغربية ، وهو الاتجاه الذى يجرى تطبيقه الآن والى فرض حظر بترولى على الولايات المتحدة الامريكية وغرب أوروبا ، الامر الذى سيكون ــ على عكس الموقف فى سنة ١٩٦٧ ــ ضربة رئيسية لاقتصــاد العــالم الغربى . وتعنى مثل هذه التطورات زيادة شديدة فى نفوذ السوفيت « الذى يبلغ حد الصفر » وقيام منافسة مــع الولايات المتحدة الامريكية حول فرض النفــوذ فى الشرق الاوسط ، وربما تعنى ايضا ميل مايسميه القادة السوفيت بميزان القوى فى العالم تجاه الاتحاد السوفيتى . وربمــا رفض الاتحاد السوفيتى ــ فى محاولة لضمان مثل هذه المكاسب ــ ان يبلغ الولايات المتحدة الامريكية بالحــــرب القادمة بالرغم من الاتفاق الواضح الذى توصــل اليـــه نيكسون وبريجنيف فى مؤتمر القمة الذى عقد فى عـــام ١٩٧٢ . وتعهد فيه الجانبان بأن يبلغ كل منهما الآخر فى حالة التهديد بنشوب صراع محلى خطير ، وتعهد الجانبان

ايضا بأن لا يسعى أحدهما الى تحقيق ميزة من جـــانب واحد « على حساب الآخر ».

وفى ٢٨ من سبتمبر ، وقبل نشوب الحرب باسبوع زار اندريه جروميكو وزير الخارجية الـــروسى نيكسون وكيسنجر فى البيت الأبيض ولم يخبر القادة الامــريكيين بأى شىء عن الحرب بالرغم من معرفته الاكيدة فى هــذا الموعد المتأخر .

والشىء المثير للسخرية انه فى الوقت الذى أيدت فيه الزعامة السوفيتية القرار الذى أتخــذه الرئيس السادات بالدخول فى حرب ، فقد ظلت تنتقد بعض السياسات التى ينتهجها مثل : سياسة التعاون الوثيق مع الملك فيصل . وبالرغم من التعاون الكبير الذى قام بين مصر والاتحــاد السوفيتى خلال حرت اكتوبر ١٩٧٣ فانه عنــدما انتهت الحرب عاد الرئيس السادات الى انماطه السابقة فى سياسته الداخلية والخارجية ، وكثير من هذه الانماط يملأ بالرعب قلب المسئولين السوفيت من انهيار الوحــدة المناهضـــة للامبريالية التى طالما تمنوها هم وخوفهم من تحول الرئيس المصرى نحو الولايات المتحدة الامريكية .

الفصـــل الخـــامس

الاتحاد السوفيتي وحـــرب اكتوبر
السياسة السوفيتية أثناء الحرب

فى الوقت الذى كانت المواقع الاسرائيلية فى صحراء سيناء ومرتفعات الجولان تتعرض فيه لهجـوم مصرى ـ سورى أحسن تنسيقه ، اتسم رد الفعل السوفيتى المبدئى ازاء ذلك بالتردد الشديد . ولعـل ذلك كان راجعا الى ان الزعامة السوفيتية ساورتها الشكوك فى قدرات الجيشين السورى والمصرى آنذاك على شن هجومهما الناجح . وقد حاول الروس حمل الرئيس السادات ـ حسب تقريره ـ على الموافقة على وقف اطلاق النار ولم ينقض على بـدء القتال سوى ساعات فحسب ، زاعميـــن ان سوريا طلبت وقف اطلاق النار . وحتى حينما رفض الرئيس السادات الخدعة السوفيتية لم يتحرك السوفييت للمساندة الا بعد انقضاء ثلاثة ايام على بدء القتال حينما بدا ان الجـــانب العربى يكسب المعركة . ولعل هذا يعود الى احساسهـــم بامكانية نجاحهم فى النهاية فى حشد العـرب فى الانحيــاز « المعادى للامبرياليين » الذى طالما دعوا اليه ، وتوجيــه ضربة موجعة لمصالح الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط .

ومع هذا ، لم يتجاوز تورط السوفيت حدودا بعينها فى الوقت نفسه . وبعث بريجنيف فى شهر اكتوبر بالمذكرة التالية للرئيس الجزائرى « هوارى بومدين » كما بعث بمذكرات مماثلة لزعماء عرب آخرين : « الرفيق الرئيس : اعتقد انك تتفق معى فى الراى بأن الصراع المشتعل حاليا ضد المعتدى الاسرائيلى من أجل تحرير الاراضى العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ .. وتأمين الحقوق المشروعة لشعب فلسطين يؤثر على المصالح الحيوية لجميع الشعوب العربية. ونحن نرى قيام تضامن عربى أخوى ، اليوم اكثر من اى ، وقت مضى . ولا يجب أن تظل سوريا ومصر تقفان بمفردهما فى صراعهما ضد عدو غادر » .

ومع هذا كانت اسرائيل قد تمكنت بحلول الثانى عشر من شهر اكتوبر من صد الهجوم السورى بعد أن وقع اختيارها على التعامل مع عدو واحد على حدة . وكانت القوات الاسرائيلية تتحرك داخل سوريا متجاوزة خط وقف اطلاق النار عام ١٩٦٧ ، فى الوقت الذى ظلت تتخذ فيه موقف الدفاع فى سيناء . وعند هذه النقطة صرح هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة بأن حرب الشرق الاوسط تنطوى على احتمال تجاوزها نطاق السيطرة عليها وتوريط الدول العظمى فيها وبأنه فى الوقت الذى تحملت فيه الولايات المتحدة أفعال السوفيت حتى تلك اللحظة «فسوف لا تتردد فى اتخاذ موقف حاسم اذا أضحى سلوك السوفيت غير مسئول » .

ومما يبعث على الاهتمام الشـديد ، ان الروس أقدموا على عـدد من التحـركات لاجتـذاب الجاليـات اليهـودية والليبرالية فى الولايات المتحـدة بغية مواصلة احيـاء روح الوفاق فى الوقت الذى كانوا يمـدون فيه السوريين والمصريين بكميات من الاسلحة . وفى الواقع زاد معـدل الهجـرة الى اسرائيل بدلا من الحد من تدفق اليهـود السوفيت ، أضف الى ذلك ان الاذاعات الموجهة من الاتحاد السوفيتى الى الولايات المتحدة فى أثناء الحـرب أكدت أن الاتحاد السوفيتى لا يعترض على وجود اسرائيل كدولة ، ولكنه « يعترض فقط على غزواتهـا » . وأعلنت الولايات المتحدة فى الخامس عشر من اكتوبر ان الجسر الجـوى من الاسلحة السوفيتية للعـرب يهـدد « بالاخلال بالتـوازن العسكرى لغير صالح اسرائيـل » . ثم شرعت الولايات المتحدة فى مد جسر جوى من الاسلحة لاسرائيل .

وفى نفس الوقت طار الرئيس الجزائرى « بومدين » الى موسكو يطلب المزيد من الدعم لقضية العـرب ، تماما مثلما حدث فى حرب عام ١٩٦٧ ، ومرة أخرى لم يحصل على كل العون الذى طلبـه . وعلى الرغم من أن « وكالة تاس » نشرت عقب هذه الزيارة تعهدا سوفيتيا « بمساعدة العرب بجميع الوسائل الممكنة » .. أعلن البيان المشترك أن المحادثات جرت فى جو من الصراحة .. (تلك العبـارة السوفيتية الشفرية المعتـادة التى تستخدم للتعبير عن وجود خلاف خطير فى الرأى) .

وفى الوقت الذى لم يكن الروس فيـــه مهيئين لوقف اطلاق النار فى ١٦ من اكتـــوبر ، أدى عبور الاسرائيليين لقنـــاة السويس فى ذلك اليـــوم وما تلا ذلك من توسيعهم نطاق الثغرة التى أقاموها على الضفة الغربية للقنـــاة الى تغيير موقف الزعماء السوفيت على وجه السرعة ، فقد طار « كاسيجين » الى القـــاهرة فى ١٦ من اكتـــوبر واجتمـــع بالرئيس السادات طيلة ثلاثة أيام . وفى هـــذا الوقت أعلنت احـــدى عشرة دولة عربيـــة مجتمعة فى الـــكويت أن صادرات البترول العربى للدول « غير الصـــديقة للدول العـــربية » ستتضاءل كل شهر بنسبة ٥٪ الى أن يقوم الاسرائيليون بالانسحاب الى حدود ما قبـــل عام ١٩٦٧ . وهـــكذا استخدم ســـلاح البتـــرول ، الذى كان الزعمـــاء السوفييت يحثون على استخدامه قبل الحرب واثناءها . واذا كان هذا الاجراء قد استهدف منع الولايات المتحدة من تقديم المزيد من المساعدة لاسرائيل ، فلا شك فى انها محاولة باءت بالفشل ، اذ أن « نيكســـون » طلب من الكونجرس يوم ١٩ من اكتوبر منح معونة لاسرائيل بما قيمته ٢ر٢ بليون دولار . وقد ابرزت اذاعة موسكو الدعم الامريكى المقـــدم لاسرائيل لمناشدة العرب مرة اخرى وقف تدفق البتـــرول الى الغـــرب حيث قالت : « ان الظـــروف مهيـــأة حاليـــا لاستخدام العرب للبترول كسلاح اقتصادى وسياسى ضد الدول الراسمالية التى تدعم عدوان اسرائيل » .

وقد ســـافر كيسنجر الى الاتحاد السوفيتى بناء على « طلب عاجل » من الزعمـــاء السوفيت وتمخضت زيارة كيسنجر عن الاتفاق على وقف اطلاق النار فى مواقعه . وكان هــذا تراجعــا له ثقله من جانب الروس عن موقفهم السابق الذى كانوا يدعون فيه الى العودة لحدود عام ١٩٦٧ كثمن لوقف أطلاق النــار . ولم تؤد الاتفاقية السوفيتية الامريكية لوقف اطلاق النار التى وافق عليها مجلس الامن فى الساعات الاولى من صباح يوم ٢٣ من اكتوبر الى انهاء القتال ، فقد واصل كلا الطرفين القتــال لتحسين مواقعه على الرغم من موافقته على وقف اطلاق النار . لذلك قرر الزعماء السوفييت ممارسة الضغط على اسرائيل والولايات المتحدة بوضع فرقهم السوفيتية المحمولة جوا فى حالة تأهب وارسالهم طائرات نقــل لقــواعد القــوات المحمولة جوا . وفى تلك الآونة نفسها بعث بريجنيف بمذكرة شديدة اللهجة الى نيكسون جاء فيها ما يلى :

« انى أقولها فى صراحة انه اذا لم تتمكن الولايات المتحدة من التعاون معنــا فى هــذه المسألة .. فلا بد من ان نواجه الضرورة الملحة التى تفـرض علينــا البحث عن احتمــال اتخاذنا خطوات مناسبة من جانب واحد » . وفى الوقت الذى ربما استخدم فيه الزعيم السوفيتى عنصر الخداع .. قرر نيكســون عدم المخاطرة واعلن حالة التأهب النووية ، ولم يبد آنذاك ان الوفاق قد قضى نحبه فحسب ، وانمــا أيضا أن الدولتين العظميين على شفا مواجهة نووية ، ولكن

سرعان ما رتاجع « بريجنيف » عن تهديده بالتدخل من جانب واحد ــ ربما لأن هذه المواجهة هى آخر شىء كان الزعماء السوفيت يريدون أن تتمخض عنه الحرب فى الشرق الاوسط ــ ومارست الولايات المتحدة ضغطها على اسرائيل لانها لم تكن ترغب بالمثل فى تطور الصراع على نحو أكبر . وحينئذ قررت الدول العظمى عرض القضية ثانية على الأمم المتحدة .. وتم تشكيل قوة طوارىء تابعة للامم المتحدة لتأمين مراعاة وقف اطلاق النار على الرغم من أن الخلاف دب بعد ذلك بين الدولتين العظميين بشأن تشكيل القوة التابعة للامم المتحدة .

ومع اقتراب الحرب من نهايتها ، أمكن لواضعى السياسة السوفيتية الحصول على عدد من المكاسب الهامة فى الشرق الاوسط ،على الرغم من التردد الذى شاب موقفهم حيال الحرب فى بداية الامر ، وعلى الرغم من أن عدداً من هذه المكاسب ثبت أن لها طابعا مؤقتا . ولعل أهم مكسب للسوفيت تحقق هو قيام وحدة عربية « معادية للامبريالية » طالما دعوا اليها منذ فترة طويلة ، وما اقترن بذلك من عزلة ــ ظاهرية ــ للولايات المتحدة من حلفائها السابقين فى المنطقة .. فانه لم تقم سوريا ومصر والجزائر والكويت والعراق والمغرب بدفع قواتها الى خضم المعركة ضد اسرائيل فحسب ، وانما اعلنت الدول المتحالفة مع الولايات المتحدة مثل الكويت والسعودية ــ بالاضافة الى ارسال قواتها للجبهة ــ فرض حظر بترولى ضد الولايات المتحدة ، كما

طلبت دولة البحرين الواقعة على الخليج من الولايات المتحدة الجلاء عن قاعدتها البحرية فى أراضيها .

وكان التصالح بين ايران والعراق أحد المكاسب الاخرى الهامة للاتحاد السوفيتى من هذه الحرب . ففى الثامن من شهر اكتوبر اعلنت العراق عن رغبتها فى استعادة العلاقات الدبلوماسية مع « ايران» وطلبت الحكومة العراقية من ايران قبول هذه اللفتة حتى يمكن نقل القوات العراقية المرابطة على الحدود مع ايران الى سوريا للمشاركة فى القتال ضد اسرائيل . وقبلت الحكومة الايرانية هذا العرض ربما على أساس توقعها انه يمكنها الاستفادة بعد ذلك من تضامنها مع العرب لاقناعهم بالموافقة على رفع سعر البترول . شعروا بالرضا أيضا ازاء التصالح بين نظم الحكم البعثية فى سوريا والعراق اللتين نشب بينهما خلاف مرير قبل الحرب بسبب قرار العراق مد خط انابيب بترول يمر عبر تركيا لتمكين البترول العراقى من التدفق الى البحر المتوسط بدون تعرضه للتهديد بوقف التدفق عبر الخط من جانب السوريين بشكل مستمر .

وعلى المستوى الاستراتيجى عززت الحرب ، الى حد كبير ، من مركز السوفيت فى العالم . وواجه حلف شمال الاطلنطى أكبر أزماته منذ نشوب حرب السويس عام ١٩٥٦ بسبب معارضة الاوربيين الغربيين فى امداد اسرائيل بالسلاح عن طريق القواعد الامريكية فى أوروبا . ومما زاد من حدة التوتر القائمة داخل التحالف على نحو أكبر ،

الخلافات حول السياسة المتبعة تجاه الحظر البترولى .
وفى نفس تلك الآونة وقع انقسام فى السوق المشتركة نتيجة فشل بريطانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، والمانيا الغربية فى معاونة هولندا ، الدولة العضو فى السوق الاوربية المشتركة والتى الحق بها الضرر فرض حظر كامل على تصدير البترول اليها .

هكذا حققت الحرب عددا من المكاسب للاتحاد السوفيتى على الرغم من أن الوفاق السوفيتى ـ الامريكى تعرض لضربة شديدة من معارضة اعداد كبيرة من الامريكيين ، داخل وخارج الحكومة فى صراحة لسياسة الوفاق التى يتبعها نيكسون ازاء الاتحاد السوفيتى وما يقترن بها من سياسات تجارية وأخرى تتعلق بالاسلحة الاستراتيجية .
ومع هذا فكما طرا تحسن كبير على مركز الاتحاد السوفيتى ـ بعد أن كان قد أصابه الضعف الشديد نتيجة طرده من مصر فى يوليو عام ١٩٧٢ ، كما تحسن مركز الولايات المتحدة بعد ذلك والذى كان قد بلغ أدنى درجاته عند انتهاء الحرب وذلك بفضل الدبلوماسية المحنكة «لهنرى كيسنجر» وقيام الرئيس انور السادات باعادة تنظيم أولوياته .

اتفاقية فض الاشتباك الاسرائيلية المصرية :

عقب انتهاء حرب اكتوبر ١٩٧٣ واجهت الزعامة السوفيتية اختيارا بين محاولة استغلال الانقسامات التى حدثت داخل حلف شمال الاطلنطى والسوق الاوربية

المشتركة والمزيد من ضعف مركـز الولايات المتحـــده فى الشرق الاوسط ، وبين محاولة تحسين العلاقات بالولايات المتحـــدة الامريكية لتحقيق مكاسب ستعود عليهم ، على المدى البعيد ، من وراء الحد من الاسلحة والتجارة . وفى الوقت الذى واصل فيه الزعماء السوفيت تأكيـــد قيمة الوفاق وزعمهم بأنه حال دون نشوب حرب نووية بين الدول العظمى خلال النزاع فى الشرق الاوسط ، حرصوا مع ذلك على حث العرب لاستمرر فرض حظر بترولى على الولايات المتحدة . وكان من الواضح أن هذا التصرف يضعف اقتصاد الشعب الامريكى ويهز دعائم الزعامة الامريكية لحلف شمال الاطلنطى على السواء . ولذلك قرر الرئيس نيكســـون فى اوائل شهر نوفمبر اقنـــاع الكونجرس بتأجيل النظر فى مشروع قانون سبق أن تقـــدمت به حكومته ويقضى بمنح الاتحاد الســـوفيتى حق الدولة الاولى بالرعاية فى مجال التجارة ، بعد أن ظل لفتـــرة طويلة يدعو الى زيادة حجم التجارة مع الاتحاد السوفييتى . وقد أوجز مقال افتتاحى صدر بجريدة النيويورك تايمز بعـــد ذلك ببضعة أشهر ، مشاعر عدد كبير من الامريكيين حيال سعى الروس للحفاظ على الوفاق مع الولايات المتحدة والحظر البترولى المفروض ضد الولايات المتحـــدة فى تلك الآونة نفسها بقولها : « ان الحملة الدعائية التى يوجهها راديو موسكو باللغة العربيـــة لحث العرب على مواصلة حظرهم البترولى المفروض ضـــد الولايات المتحـــدة يذكرنا بأسلوب « الكرملين » المزدوج

بالنسبة للوفاق . ومع هذا ، ففى الوقت الذى تؤيد فيه موسكو هذ الحظر يحتج المسئولون السوفيت الذين يزورون الولايات المتحدة بصوت عال على التعريفة الجمركية الامريكية المتحيزة المفروضة على الصادرات السوفيتية ، بالرغم من شرعيتها .

وفى الوقت الذى ساءت فيه العلاقات السوفيتية ـ الامريكية بوضوح نتيجة الحرب شرعت الوحدة العربية فى التداعى بمجرد انتهاء الحرب تقريبا . ولهذا رفض نظام الحكم البعثى اتفاقية وقف اطلاق النار التى أيدها السوفييت بالرغم من اشتراك الشيوعيين العراقيين فى جبهة وطنية . وعلى الرغم من الصلات الوثيقة التى تربطه بالاتحاد السوفيتى وصف الاتفاقية بأنها « ضد رغبة الجماهير » تماما ، ورفض قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذى أصدرته الامم المتحدة . والواقع أن أعتراض نظام حكم « البكر » على وقف اطلاق النار بلغ حدا دفعه الى رفض حضور مؤتمر قمة الزعماء العرب فى الجزائر الذى عقد فى اواخر شهر نوفمبر سنة ١٩٧٣ بقصد تنسيق استراتيجية العرب . وعارض الرئيس الليبى كذلك وقف اطلاق النار ووصفه بأنه « قنبلة زمنية » زرعتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . ومما زاد الامر سوءا بالنسبة للروس ، أن قتالا دمويا اندلع بين الاكراد والشيوعيين العراقيين فى الفترة من ٧ الى ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ . وتلا ذلك فى الشهر التالى تجدد اشتباكات الحدود بين العراق وايران .

وهى اشتباكات سرعان ما تصاعدت الى معارك عنيفة دفعت الروس الى توجيه اللوم علنا للعراقيين . وهكذا أصبحت العراق مرة اخرى معزولة بعد أن كانت عزلتها فى العالم العربى ، وفى المنطقة بصفة عامة قد دفعت حكومة « البكر » الى طلب التحالف مع الروس .

وواجه الزعماء الروس فى مصر بعد الحرب مشكلة اخطر بكثير عندما بدأ النفوذ السوفيتى ينحسر بعد أن كان قد عاد ، جزئيا نتيجة شحنات المعدات العسكرية المرسلة اليها ، ومن بينها صواريخ أرض ـ ارض من طراز « سكود » التى حصلت عليها فى نهاية الحرب . وأصبح التحالف الرئيسى فى العالم العربى ـ بانتهاء الحرب ـ هو التحالف المصرى السعودى مع تشكيل المصريين القوة العسكرية ، وممارسة السعودية الضغط البترولى . ومن الواضح أن كيسنجر ادرك ذلك أثناء قيامه بالمساعدة فى التفاوض لوقف اطلاق النار ، واغلب الظن أن كيسنجر تذكر ايضا جهود الرئيس السادات لتحسين علاقاته بالغرب وكراهيته للروس الذين واجههم فى صراحة بمعارضته فى عدد من المناسبات ، منذ أن أصبح رئيسا للجمهورية فى شهر اكتوبر عام ١٩٧٠ . ومن هنا تأكد كيسنجر أن أمامه فرصة فريدة فى نوعها لكسب مصر الى جانبه ، أو على أقل تقدير لكسب تأييد بقية العالم العربى أيضا من خلال ارغام ـ الاسرائيليين على الموافقة على وقف اطلاق النار ، ثم العمل على تبادل الاسرى (٧ من نوفمبر) ثم التوصل الى اتفاقية

كاملة لفك الاشتباك (١٨ من يناير) مما أسفر عن انسحاب اسرائيل ، لامن الثغرة فحسب ولكن من الضفة الشرقية لقناة السويس أيضا ، مما مكن المصريين من السيطرة على كلتا الضفتين من القناة لاول مرة منذ عام ١٩٦٧ . ونجح كيسنجر خلال هذه العملية فى ضمان اعادة العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة ومصر . والواقع ان تحسنا سريعا طرأ على العلاقات بين مصر والولايات المتحدة مما فتح الباب على الفور أمام تدفق مستمر من جانب رجال الاعمال الامريكيين على مصر التى تعتبر فى ظل سياسات السادات الاقتصادية مجالا جيدا للاستثمارات الاجنبية . وبلغت هذه العملية ذروتها فى الزيارة التى قام بها للقاهرة « دافيد روكفلر » مدير بنك تشيس مانهاتن الذى أعلن آنذاك عن انه يزمع فتح عدد من البنوك التى تقدم كافة الخدمات المصرفية فى مصر . ولم ينجح كيسنجر فى تحقيق هذا كله فحسب ، ولكنه نجح أيضا فى ضمان مساعدة السادات فى رفع الحظر المفروض على تصدير البترول العربى . وبذلك أمكنه احداث انقسام فى (الوحدة العربية المعادية للامبريالية) التى سعى الروس جاهدين للحفاظ عليها . وبالطبع كانت الزعامة الروسية ابعد ما تكون عن الرضا بهذه التطورات فسعوا الى مواجهة هذا الموقف بتعميق علاقاتهم بمنظمة التحرير الفلسطينية التى تعتبر من أكبر القوى معاداة لامريكا فى الشرق الاوسط . فقد بدأ السوفيت بتأييدهم القوى للفلسطينيين

كما لو كان هدفهم اقامة دولة فلسطينية على الضفة الغربية من نهر الاردن وقطاع غزة الى جانب مجابهة التقارب المصرى الامريكي . وفى نفس الوقت يقومون بتأمين منطقة اخرى فى الشرق الاوسط ليتمكنوا من ممارسة نفوذهم فيها بالاضافة الى اليمن الجنوبية والعراق وسوريا حيث احسوا بأن نفوذهم فى الطريق الى الاضمحلال . ولعل المنطق السوفيتي استند أيضا الى أن اقامة نظام حكم موال للسوفيت وسط دول موالية للغرب مثل اسرائيل والاردن ولبنان سيؤدى الى مزيد من اضعاف مركز الولايات المتحدة فى المنطقة فى الوقت الذى يدعم فيه من مركز الاتحاد السوفيتي .

وقد حظى موقف الاتحاد السوفيتي بتقدير بالغ خلال مؤتمر القمة العربى بالجزائر الذى عقد فى اواخر نوفمبر سنة ١٩٧٣ ، بينما كان المصريون يسيرون قدما فى طريق تنفيذ مشروعهم الذى أعلنوه فى ٩ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ والخاص بمنح شركة بيشتيل **Bechtel** الامريكية عقدا بانشاء خط أنابيب البترول الممتد من السويس حتى البحر المتوسط والذى كان موضع مناقشة منذ زمن بعيد ، ووافقت الكويت والسعودية على تمويل هذا المشروع الاستثماري سويا .

وحاول الاتحاد السوفيتي مواصلة دعوته الى تحقيق الوحدة العربية عند افتتاح اول مؤتمر سلام عربى — اسرائيلى عقد فى جنيف يوم ٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ ،

ولكن السوريين قاطعوا هذا المؤتمر وزعموا انه يخدم مصالح اسرائيل ، وان الولايات المتحدة واسرائيل منغمستان فى (مناورات ستقودنا الى متاهات لا نهاية لها) . ونظرا لان الاتحاد السوفيتى أيد بقوة انعقاد المؤتمر حتى يضمن اشتراك الروس فى أية تسوية تتم لاقرار السلام فقد اكتسبت الملاحظات التى ابداها السوريون طابعا معاديا للروس والامريكيين على السواء . ومع هذا صرح جروميكو وزير الخارجية السوفيتى الذى مثل الاتحاد السوفيتى فى المؤتمر بأن « الاتحاد السوفيتى لا يضمر أى عداء لدولة اسرائيل » وتأجل مؤتمر جنيف عقب عدة اجتماعات ، وتمت خلال الفترة الوسيطة اجتماعات للدول العربية المنتجة للبترول ودول الخليج المنتجة للبترول ، واتخذت قرارات استقبلها الروس بارتياح . فقد عمدت دول الخليج المنتجة للبترول الى ما هو أكثر من مجرد مضاعفة السعر المحدد للبترول الخام بل ضاعفوا سعره بنسبة أربعة أمثاله ، وبهذا أصبح فى حكم المؤكد الاخلال بميزان المدفوعات لدى دول أوروبا الغربية ، وهذا يزيد من تعثر وحدة السوق المشتركة وحلف شمال الاطلنطى (ناتو) على السواء . ولا شك فى أن فرنسا حطمت وحدة السوق الاوربية المشتركة فى ١٩ من ينساير سنة ١٩٧٤ باتخاذها قرارا من جانبها وحدها بتعويم الفرنك للمساعدة فى مواجهة الازمة التى نجمت عن ارتفاع أسعار البترول . كما استفاد الروس من حقيقة أن دخلهم من العملة الصعبة

سيرتفع ــ باعتبارهم مصدرين للبترول ــ بارتفـــاع سعر السوق للبتـــرول الذى يبيعونه لدول اوروبا الغـــربية واليابان .

وواصلت وسائل الاعلام السوفيتية الحديث خلال الايام الاولى من شهر يناير عـــام ١٩٧٤ عن فكرتهـــا المزدوجة الخاصة بالتهديد الامريكى الموجه للدول العـــربية والدعم الامريكى المستمر لاسرئيل . واستغلت وســـائل الاعلام السوفيتية ايضا تحذير (جيمس شليزنجر) وزير الدفاع الامريكى للعرب بأنهم يغامرون باستخدام القوة ضدهم اذا قطعوا شوطا بعيدا فى حظرهم البترولى . ومع هذا شكت جريدة (برافدا) فى ٦ من ينـــاير من (محـــاولات غرس بذور الخلاف بين الدول العـــربية واصدقائها (الحقيقيين) وانتهزت الفرصـــة ايضا للتنديد بليبيا لتسريبها البترول للولايات المتحدة .

لقد كان لاتفاق الفصل بين القوات الاسرائيلية والمصرية فى ١٨ من يناير الذى أعد له كيسنجر وقع المفاجأة على الزعماء السوفيت . والواقع ان قيام الرئيس السادات بالحث على رفع الحظر البترولى . عقب ابرام هذه الاتفاقية كان بمثابة ضربة أخرى موجهة للروس . وقد بدا فى ذلك الوقت كما لو كانت مسألة رفع الحظر هى مسألة وقت فحسب نظـــرا لان الشيخ اليمانى والرئيس الســـادات تحدثا بصراحة عن تنفيذ رفع الحظر .. ووسط هـــذا الجو قام كيسنجر بزيارة أخرى لمنطقة الشرق الاوسط فى نهاية شـــهر فبراير

سنة ١٩٧٤ متنقلا فى هذه المرة بين دمشق والقدس محاولا الحصول من الزعماء السوريين على قائمة بأسماء اسرى الحرب الاسرائيليين كشرط مسبق لاجراء المحادثات مع سوريا . وبدا عند هذه النقطة كما لو كان كيسنجر سيتمكن ثانية من احراز نصر دبلوماسى آخر ـ وكان هذا على مايبدو فوق طاقة احتمال الروس .. فبعد ان شهد الزعماء السوفيت حلول الولايات المتحدة محل الاتحاد السوفيتى كصاحبة نفوذ لدى مصر ، فانه لا توجد لديهم ادنى رغبة فى تكرار هذه العملية فى سوريا .. وتبعا لذلك طار جروميكو الى دمشق فىأعقاب زيارة كيسنجر لها . وكشف البيان المشترك الذى صدر فى أعقاب هذه الزيارة اللثام عن مدى تدهور وضع السوفييت فى مصر . فقد كان هذا البيان أكثر ولعا بالقتال من البيان ـ السوفيتى ـ المصرى الذى صدر عقب زيارة جروميكو للقاهرة فى هذه الآونة فقد طالب البيان السورى ـ السوفيتى بجدول زمنى للانسحاب مع التهديد باندلاع لهيب الحرب من جديد . وبعد رحيل جروميكو شرع نظام الاسد فى شن حرب استنزاف موجهة ضد المواقع الاسرائيلية فى مرتفعات الجولان يشجعه فى ذلك حصوله على شحنات من الاساحة من الاتحاد السوفيتى . وفيما يبدو أن الزعماء السوفيت خالجهم الأمل بانهم عن طريق زيادة حدة النزاع فى مرتفعات الجولان سيتمكنون من منع الدول الغنية بالبترول من رفع الحظر على تصدير

البترول . ففى الوقت الذى عمدت فيه سوريا الى تكثيف مستوى قتالها حث الاتحاد السوفيتى الدول العربية بعبارات قوية جدا ــ على الاستمرار فى حظرها البترولى ، وقللت فى نفس الوقت من قدر جهود الوساطة التى يقوم بها كيسنجر .. ولكن رغم ذلك كله نجحت جهود كيسنجر وأقدمت الدول العربية الكبرى المنتجة للبترول فى ١٩ من مارس سنة ١٩٧٤ على رفع الحظر البترولى عن الولايات المتحدة . ويمكن اعتبار انهاء الحظر البترولى هزيمة لها مغزاها للدبلوماسية السوفيتية فى الشرق الاوسط ، لان الاتحاد السوفيتى كان قد استفاد كثيرا من الفوضى داخل حلف شمال الاطلنطى (ناتو) والسوق الاوربية المشتركة على السواء نتيجة للحظر الذى كان مفروضا . ولذا فقد قامت الزعامة السوفيتية مرة أخرى فى أعقاب رفع الحظر البترولى باعادة النظر فى سياستها بالشرق الاوسط بغية وقف الاتجاه الموالى لامريكا الذى كان يبرز فى المنطقة .

اتفاق الفصل بين القوات الاسرائيلية والسورية :

كان لرد الفعل السوفيتى ازاء انهاء الحظر البترولى ثلاثة جوانب ، الجانب الاول قيام الزعامة السوفيتية بشن هجوم عام على الرئيس السادات بقصد عزله داخل مصر عن الزعماء العرب . والثانى قيام الاتحاد السوفيتى بتكثيف دعمه لكل من سوريا والعراق خشية أن يجتذب التحالف المصرى ــ السعودى تلكما الدولتين العميلتين للاتحاد

السوفيتى ، ذلك التحالف الذى أيدته الولايات المتحدة وانطوى على وعد بتقديم مساعدة اقتصادية وتكنولوجية سواء بسواء . وفى نهاية الامر تحرك الاتحاد السوفيتى لتحسين العلاقات مع ليبيا ــ العدو السابق له فى الشرق الاوسط ــ التى اقتربت على نحو اوثق من الاتحاد السوفيتى ردا على التقارب المصرى الامريكى . ومع هذا حرصت الزعامة السوفيتية فى اتباعها لهذه السياسات على الاحتفاظ باتصالها بالولايات المتحدة فى الوقت الذى كان كيسنجر يعمل فيه من أجل التوصل الى اتفاقية للفصل بين القوات السورية والاسرائيلية وكان الروس بانتهاجهم لهذه السياسة يسعون الى الحفاظ على المظهر الخارجى للوفاق ، وليتجنبوا أيضا تكرار تجربتهم السابقة حينما توصل كيسنجر الى اتفاقية للفصل بين القوات المصرية والاسرائيلية بدون مشاركة من الاتحاد السوفيتى .

بدات العلاقات السوفيتية ــ المصرية تتدهور بشكل سريع فى أعقاب انهاء الحظر على تصدير البترول ، وانتقم الاتحاد السوفيتى من الرئيس السادات لمعارضته قضية الحظر بوصفه بأنه خان تراث ناصر ، وكانت هذه محاولة واضحة من أجل اضعاف مركز الرئيس السادات بين الرأى العام المصرى واولئك الذين ما يزالون يبجلون ذكرى ناصر . وفى الوقت نفسه أعرب الزعماء السوفييت عن قدر من المشاعر القلقة حيال تضاؤل مركزهم فى مصر .

ومع هــذا ، لم ترهب الرئيس السادات هجمـــات السوفيت بل رد الصاع صاعين باتهامه السفير السوفيتى « فلاديمير فينوجرادوف » بالكذب عليه فى أول أيام القتال بشأن رغبة سوريا فى وقف اطلاق النار على الفور . وقـد تحدث الرئيس السادات عن هذا فى خطاب القـــاه يوم ٣ ابريل سنة ١٩٧٤ واعلن فيـــه أنه طرد الروس فى شهر يوليـــو سنة ١٩٧٢ لانهم لم يوفوا بمواعيد تسليم أسلحة لمصر كما وعدوه بذلك . ثم تعرضت العـلاقات السوفيتية المصرية فى ١٨ من ابريل ١٩٧٤ لضربة جديدة حينمـا أعلن الرئيس السادات قراره الخاص بالكف عن الاعتمـاد المطلق على الاتحاد السـوفيتى فى مده بالاسلحة . وفى حديث للرئيس المصرى أدلى به لجريدة « نيويورك تايمز » بعــد ذلك بثلاثة أيام قال أنه طلب من الولايات المتحـــدة تزويد مصر بالاسلحة لان الاتحاد السوفيتى استغل عمليـة امداد مصر بالاسلحة والذخيرة (كأداة سياسية للضغط عليـه) وللتأثير على المصريين .

وفى نهـاية شهر أبريل - وبينمـــا يرى الكثيرون ان التقـارب المصرى - الامريكى يتحول الى انحيـــاز - بعث بريجنيف الى الرئيس السادات (مـذكرة تصـالحية) فى ٢٤ من ابريل سنة ١٩٧٤ مما حدا بالرئيس الســادات للرد عليه بعد يومين .

وبحلول الشطر الاخير من شهر مايو بدا كمـا لو كانت مفاوضات الفصـــل بين القوات الاسرائيلية والســـورية

ستحقق نجاحا ، ولذا اتخذت الزعامة السوفيتية موقفا اكثر ايجابية حيال مصر التى كان من المؤكد زيادة مكانتها فى العالم العربى بانتهاج السوريين نهج المصريين فى التوصل الى تسوية الفصل بين القوات . ولذا قام برجنيف يوم ١٩ من مايو سنة ١٩٧٤ - ومع اقتراب الاحتفال بالذكرى الثالثة للمعاهدة السوفيتية - المصرية - بارسال سفير جديد له الى مصر حاملا معه رسالة ودية للرئيس السادات .

وفى الوقت الذى كان الرئيس السادات يرحب بالتقارب المحدود مع الاتحاد السوفيتى كان مشغولا بايجاد موارد اخرى للمساعدة العسكرية والاقتصادية ، فبالاضافة الى تحسين علاقات مصر مع الولايات المتحدة استضافت مصر اجتماعا لوزراء الدفاع والخارجية العرب فى ٢٠ من مايو واتخذ فى هذا الاجتماع قرار خاص بانشاء صناعة اسلحة عربية تعاونية ، مع البدء باختيار مصر موقعا للقيام بهذه المشروعات . ومن الامور التى لها اهمية كبيرة ان العراق - اقرب حلفاء الاتحاد السوفيتى فى العالم العربى - قاطع المؤتمر ، أما ليبيا التى كان رئيس وزرائها قد قام لتوه بزيارة للاتحاد السوفيتى فلم ترسل غير وفد على مستوى منخفض . وبالاضافة الى تخطيط الرئيس السادات لهذا المصدر البديل للاسلحة فى حالة اذا ما قطع الاتحاد الاتحاد السوفيتى مرة اخرى شحنات الاسلحة او قلل منها ، او اذا تعذر شراء الاسلحة المرغوب فيها من الولايات

المتحدة واوروبا الغربية ، فقد اكتسب مصـــدرا اضافيا لراس المال المستخدم فى التنمية . فقــد وقعت ايران فى شهر مايو اتفاقية مع مصر باقراضها ٧٥٠ مليــون دولار . ومع أن تطوير صـــناعة الاسلحة سيستغرق بضـــع سنوات والقــرض الايرانى لم يكن ســــوى شريحـــة صغيرة من احتياجات مصر الاقتصـــادية ، فان كلتا الخطوتين منحت الرئيس مجالا للمناورة فى علاقاته مع الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة على السواء . ووجد الزعماء السوفيت الرئيس السادات بحلول شهر مايو أقل اعتمادا من قبـــل حرب اكتوبر على العون العسكرى والاقتصادى السوفيتى .

وفى هذا الوقت ازداد القذافى فى ليبيا تقربا من الاتحاد السوفيتى على الرغم من انه كان قد هاجم السوفييت قبل ذلك بأقوى العبـــارات ووصفهم بأنهم « قوة امبريالية » . وبدأ هذا التقارب فى ٧ من ابريل باجتماع عقـــــد فى « باريس » واستغرق ساعتين بين عبد السلام جلود رئيس وزراء ليبيا ونيكولاى بودجورنى رئيس الدولة السوفيتى ، حينمـــا كان الرجـــلان موجودين فى العاصمة الفرنسية للاشتراك فى تشييع جنـــازة الرئيس الفـــرنسى جورج بومبيدو . وساعد مراسل (نيوتايمز) على تحديد أسلوب تحسين العلاقات السوفيتية الليبية بنشره مقـــالا متعاطفا يصف فيه التطور الذى شهدته ليبيا ضد ثورة عام ١٩٦٩ . ووجه المقال الثناء الى (موقف ليبيا الواضـــح فى معـــاداة

(الامبريالية) وتأييدها القوى لقوى التحرير الوطنى الافريقية . كما وبخ الزعامة الليبية على افعالها المندفعة فى نصرة الوحدة العربية . واختتم المراسل السوفيتى مقاله بأن عرض على ليبيا تأييد السوفيت فقال : « نتمنى للشعب الليبى النجاح فى طريق الكفاح الصعب من أجل تعزيز الاستقلال الوطنى والتقدم . وفى وسع الشعب الليبى ان يعتمد فى كفاحه هذا على تأييد الدول الاشتراكية الحليف الطبيعى لجميع القوى الوطنية ـ الديمقراطية » .

ويبدو أن الزعماء الليبيين كانوا متلهفين لقبول العرض السوفيتى بالعون لأن جلود رئيس الوزراء الليبى وصل الى موسكو طالبا لمعونة سوفيتية فى أعقاب نشر هذا المقال . وفى معرض ترحيب كوسجين رئيس الوزراء السوفيتى بجلود أثناء حفل عشاء أقيم لم أكد استعداد الاتحاد السوفيتى لنسيان الخلافات الماضية بين البلدين لصالح العمل سويا فى المستقبل بقوله : « لو اننا عقدنا مقارنة بين الامور التى تجمع بين ليبيا وبين الاتحاد السوفيتى وتلك التى تفرق بينهما سنجد بلا جدال ان الغلبة من نصيب تلك التى تجمع بيننا . ويتجسد هذا فوق اى شيىء آخر فى التماثل او التشابه بين موقفينا فى النضال ضد الامبريالية والاستعمار ومن اجل اقامة علاقات دولية على أساس عادل وديمقراطى .. ولتأكيد واحترام حق الشعوب فى التطور المستقل وضمان سيادتها

على مواردها الطبيعية وتحقيق تحول اجتماعى واقتصادى تقدمى .

واكد عبد السلام جلود فى الخطاب الذى القاه ردا على خطاب (كوسيجين) عزلة ليبيا وحاجتها الى العون السوفيتى . وفى اسلوب اعاد الى الاذهان الخطاب الذى القاه صدام حسين نائب الرئيس العراقى فى فبراير عام ١٩٧٢ قال : « اننا نود أن نؤكد بكل اخلاص اننا نتعرض حاليا لضغط من جانب قوى امبريالية ورجعية . وتحدونا الرغبة فى أن تقف جميع قوى التقدم والقوى الثورية الحقة ضد هذا الوضع الذى تنتهك تحت ستاره الحقوق ويبطل مفعول المواقف التى حققتها القوى التقدمية فى منطقتنا كنتيجة كفاح ممتد » .

وفى الوقت الذى زار فيه الوفد الليبى موسكو طلبا للحصول على عون سياسى وعسكرى ، لم ير الزعماء السوفيت فى الزيارة فرصة مفيدة فحسب لايجاد مقابل لتحرك الرئيس السادات فى اتجاه الولايات المتحدة ، ولكنهم رأوا فى الزيارة كذلك وسيلة لتعزيز الاقتصاد السوفيتى اذ دعا كوسيجين الى عقد اتفاق لتنظيم التجارة السوفيتية الليبية على المدى البعيد . وورد فى البيان الذى صدر بعد انتهاء الزيارة انشاء لجنة حكومية سوفيتية ـ ليبية لهذا الغرض . يضاف الى ذلك أن الجانبين تعهدا بايجاد قدر كبير من دورة رأس المال فى مجال التجارة بما يخدم مصلحة الطرفين . ولعل الاتحاد

السوفيتى بدعوته الى زيادة حجم التجارة على نحو كبير كان يأمل فى ان يكتسب مدخلا لاحتياطات ليبيا الضخمة من العملة الصعبة ـ وهو تطور من شأنه مساعدة الاتحاد السوفيتى على زيادة مشترياته من الاسواق الغربية . ذلك بالاضافة الى انه ربما خالج الروس الامل فى تبادل التكنولوجيا والمعدات السوفيتية بالبترول الليبى الذى يمكن اعادة بيعه فى الاسواق الغربية او استخدامه لسد احتياجات الاتحاد السوفييتى المتزايدة من البترول محليا .
ولقد بلغ التعاون السوفيتى الليبى فى شئون الشرق الاوسط حدا جعل الصحف التى تمولها ليبيا فى بيروت تنشر بحلول شهر مايو هجمات السوفيت على سياسات الرئيس السادات .

وفى نفس الوقت الذى أصبح التعاون السوفيتى ـ الليبى فيه عاملا هاما فى سياسات الشرق الاوسط ، لم تهمل الزعامة السوفيتية صلاتها بالعراق التى تعتبر شريكها الرئيسى فى منطقة الشرق الاوسط منذ عام ١٩٧٣ . ومع ان الضعف دب الى جسد العراق نتيجة حربها مع الاكراد والمواجهة المستمرة بينها وبين ايران ، فانها كانت مركزا مفيدا للدعاية المعادية للغرب والمعادية للمصريين . وكانت اكثر القضايا الحاحا بالنسبة للزعماء العراقيين فى هذه الفترة هى مواجهتهم مع الاكراد . وبدا حينذاك ان الزعامة السوفيتية التى تعرضت لانشقاق مصر قد تعهدت بتقديم عون عسكرى سوفيتى لهجوم عراقى ضخم ضد الاكراد

مقابل مواصلة التأييد العراقي لمواقف السوفييت بشأن قضايا اوسع نطاقا في الشرق الاوسط . ولقد قرر الزعماء العراقيون مع تصاعد المعارضة الكردية شن هجوم كبير على الاكراد لمحاولة وضع حد للتهديد الانفصالي الكردي الى الابد ، ولانهاء الحظر الذي يتهدد حقول بترول كركوك نتيجة مزاعم الاكراد بحقهم في الاستفادة منها . وقام وزير الدفاع السوفيتي جريتشيكو بزيارة للعراق في الفترة بين ٢٣ و ٢٥ من مارس ربما لاختبار الاستعدادات العراقية لهذا الهجوم .

وهكذا شرعت الحكومة العراقية في شن هجوم واسع النطاق على الأكراد بدعم من الاتحاد السوفيتي ، على الرغم من أن الهجوم اثار احتمال اندلاع لهيب الحرب بين العراق وايران . ومن الواضح انه احتمال لم تكن ترغب فيه الزعامة السوفيتية . وفي الوقت الذي سعت فيه الزعامة السوفيتية لتحسين علاقاتها مع ليبيا وتقوية روابطها بالعراق كانت العلاقات بسوريا هي محل الاهتمام السوفيتي الرئيسي خلال فترة ما بعد فرض الحظر البترولي . وبدا من الواضح ان الزعماء السوفييت يخشون من احتمال أن تحذو سوريا حذو مصر وتتحرك في اتجاه الغرب مقابل الحصول على معونة اقتصادية وفنية . ولا شك في أن قرار الحكومة السورية في ١٣ من مارس برفع القيود المفروضة على تحرك راس المال الخاص داخل سوريا وخارجها والسماح للقطاع الخاص السوري

بالتوقيع على اتفاقيات خاصة بالحصــول على قروض مع مستثمرين اجانب ضاعف من مشاعر القلق التى استبدت بالسوفيت . وربما خالجهم الشك فى انه اذا تصــاعد القتال على نحو كاف فان الرأى العام العربى قـــد يرغم الدول العربيــة المنتجــة للبترول على اعادة فــرض الحظر البترولى .. ومن المحتمل ان يجد الرئيس السادات نفسه مرغما على العودة الى الحرب . ومع هــذا فقد تعين على الزعماء السوفيت ــ مع انتهاجهم سياســة تشجيع الولع السورى بالقتــال ــ السير فى طــريق دبلوماسى ضيق للغاية . فقد بدت فى الأفق بشائر انعقاد مؤتمر قمة جديد مع الولايات المتحدة . وكانت قضايا خاصــة بالحــــد من الاسلحة الاستراتيجية بين الدولتين الاعظم تخضع لدراسة نشيطة . ومن ثم اتبع الزعماء الســـوفيت سياسة تأييد النزعة السورية للقتـــــال ، فى الوقت الذى اقاموا فيه صلة وثيقة بجهود الوساطة التى كان يقــوم بها كيسنجر ، وكان من شأن هـــــذه السياسة المزدوجة ابراز التأييد السوفيتى للقضية العربية فى الوقت الذى تســاعد فيه أيضا الزعامة السوفيتية على ان تنسب لنفسها نصيبا من الفضل اذا نجح كيسنجر فى اقناع السوريين والاسرائيليين بالموافقة على اتفاقية خاصة بالفصل بين القوات .

وعقد أول اجتماع سوفيتى أمريكى على مستوى عال عقب رفع الحظر البترولى فى ٢٩ من مارس ، حينما سافر كيسنجر لموسكو لاجراء محادثات مع الزعامة السوفيتية .

وفي الوقت الذى كانت فيه المسائل الخاصة بالاسلحة الاستراتيجية الموضوع الرئيسى فى المحادثات ، ناقشت الدولتان العظميان ايضا الوضع فى الشرق الاوسط . ومع هذا فلم يرد فى البيان الختامى سوى « أن الجانبين سيبذلان جهودا من اجل التوصل الى حل للمسائل الرئيسية المتعلقة بالتوصل الى تسوية فى الشرق الادنى » .

وفى الوقت الذي كان فيه الزعماء السوفيت يبدون هذه اللفتة ازاء العلاقات السوفيتية الامريكية خرجوا عن طريقهم المعتاد لتأكيد تأييدهم للزعيم السورى الاسد خلال زيارته لموسكو فى منتصف شهر ابريل . واحتل نبأ زيارة الرئيس السورى صدر الصفحات فى كل من جريدتى « برافدا » « وأزفستيا » وتعمد برجنيف شن هجوم على جهود كيسنجر الدبلوماسية فى الشرق الاوسط وذلك فى الخطاب الذى القاه فى حفل العشاء الذى أقيم تكريما للاسد .

وعقب محادثات استغرقت خمسة ايام وصفها البيان الختامى بأنها جرت فى جو من « الصراحة والفهم المتبادل » وافقت الزعامة السوفيتية على دعم قدرة سوريا الدفاعية . وقال البيان فى ابراز رغبة السوفيت للقيام بدور فى محادثات السلام ، « ان الجانب السورى اكد اهمية مشاركة الاتحاد السوفيتى فى جميع المراحل وفى جميع القطاعات حول تسوية تستهدف اقرار سلام عادل ودائم بالشرق الادنى » . وتحول اهتمام السوفيت مرة اخرى الى الولايات المتحدة فى نهاية شهر ابريل حينما اجتمع جروميكو وكيسنجر

فى جنيف وهو فى طريقه الى الشرق الاوسط لاجراء مزيد من المفاوضات مع سوريا واسرائيل . وفى الوقت الـذى تركز فيه موضوع المحادثات الرئيسى على زيارة نيكسـون القادمة لموسكو والتى لم يتحدد موعـدها ، نشرت جريدة (برافدا) ان الزعيمين « تبادلا الاراء بشأن الوضع الحالى للمحادثات الخاصة بالتوصل الى تسوية فى الشرق الادنى وبالمرحلة القادمة من هذه المحادثات » .

واجتمع جروميكو مرة اخرى بكيسـنجر فى ٧ مايـو نظرا لان الزعامة السوفيتية لم تكف عن ابداء رغبتها فى أن تظل على ارتباط وثيق بمحادثات الفصل بين القوات . غير ان اهتمام السـوفيت بالوفاق تصاعد بشدة بعد ذلك بيومين حين أرغم برانت مستشـار المانيا الغربية على تقديم استقالته بسبب فضيحة تجسس تورطت فيها المانيا الشرقية . ولعل بريجنيف راى عنـد هـذه النقطة ، وبعد رحيل بومبيـدو وبرانت من المسرح السياسى الاوروبى ، ومع تعرض نيكسون الذى اضعفته فضيحة ووترجيت ـ لهجمات متزايدة من جانب خصوم الوفاق فى الولايات المتحدة ، رأى أن هيكل سياسة الوفاق التى يتبعها ازاء الغرب بصفة عامة تتعرض لخطر الانهيار . وقد يكون بريجنيف قد توصل حينئذ الى أن العرقلة السافرة لعقد اتفاق سورى ـ اسرائيلى للفصل بين القوات وفقا لشروط امريكية تتحول الى تهديد كبيـر للعلاقات السوفيتية الامريكية . وبينما كان السـوريون والاسرائيليون على وشك وضع التفاصيل الاخيرة للاتفاق بينهما فى ٢٩ من مايو قام جروميكو بزيارة اخرى لدمشق

على أمل استعادة بعض الهيبة الى الاتحاد السوفيتى من الاتفاقية التى توسط الامريكيون من أجل ابرامها . وتلقى جروميكو من الحكومة السورية اعترافا بحق الاتحاد السوفيتى فى المشاركة فى جميع مراحل التسوية السلمية ؛ وهو الحق الذى منحه الاسد للروس خلال زيارته لموسكو فى شهر ابريل أضف الى ذلك ان البيان المشترك الذى صدر عقب الزيارة أعلن ان الاتحاد السوفيتى والجمهورية العربية السورية اكدا قوة العلاقات القائمة بينهما وقوة الصداقة ، وأعلنا انهما لن يسمحا لاى شخص بزعزعة هذه العلاقات وهذه الصداقة . (مع التأكيد على هذه العبارة الاخيرة) ، وعلى الرغم من هذا البيان فقد بدا واضحا أن الزعماء السوفييت يساورهم القلق . وانهت الاتفاقية السورية - الاسرائيلية للفصل بين القوات فترة المواجهة العسكرية المباشرة بين اسرائيل والدول العربية والتى تعود الى حرب أكتوبر ، على الرغم من أن الهجمات الفلسطينية ظلت تجلب الوبال على الاسرائيليين . وقد تضاءل التهديد بتجدد الحرب خلال تلك الفترة على أقل تقدير مع بدء تركيز الجانبين على الاستعدادات الدبلوماسية التى تستهدف استئناف مؤتمر جنيف للسلام ، وحددت الولايات المتحدة وسط هذا الجو موعدا لزيارة نيكسون للاتحاد السوفيتى . ولا شك فى أن الاتفاقية السورية الاسرائيلية للفصل بين القوات كانت هى الثمن الذى طلبه كيسنجر مقابل اتمام الزيارة . ومن المحتمل ان الزعامة السوفيتية خالجها الامل فى استعادة قوة الدفع ازاء (الوفاق الذى لا عدول عنه) والذى اهتزت

عمده نتيجة لحرب اكتوبر . ومع هذا تزايدت مكانة امريكا بشدة فى العالم العربى على اثر ابرام اتفاقية الفصـــل بين القوات . وبدا فى نظر عدد كبير من المراقبين ان الولايات المتحدة على وشك ان تحل محل الاتحاد السوفيتى باعتبارها صاحبة النفوذ الخارجى المهيمن بين العرب ، وهو رأى عززته جولة نيكسون المظفرة فى دول الشرق الاوسط فى منتصف شهر يونيو .

السياسة السوفيتية حتى انعقاد مؤتمر قمة فلاديفوستوك :

شرع الرئيس الامريكى ريتشارد نيكسون قبل زيارته المقررة للاتحاد السوفيتى فى ٢٧ من يونيو فى القيام بجولة فى عدد من دول الشرق الاوسط . وصرح كيسنجر فى مؤتمر صحفى عقده قبل أن يبدأ نيكسون رحلته ــ فى محاولة من جانبه للحد مما يساور السوفيت من قلق حيال المكانة الامريكية المتزايدة فى المنطقة بأنه « ليست لدينا أية نية لمحاولة محو النفوذ السوفيتى فى الشرق الاوسط » . ومع هذا فمن المشكوك فيه ان يكون الزعماء السوفيت قـد اقتنعوا بهذا القول ، نظرا لانهم كانوا يحاولون منذ فتـرة بعيدة محو النفوذ الغربى من الشرق الاوسط ، وعلى اى الاحوال استقبل نيكسون فى مصر استقبال الابطال باعتباره الرجل الذى أرغم الاسرائيليين على الانسحاب من قنـاة السويس ، كذلك لقى ترحيبا حارا فى سوريا حيث انهال الثناء على العون الذى قدمه الامريكيون لحمل اسرائيل لا على الانسحاب فقط من الاراضى التى استولت عليها فى حرب عام ١٩٧٣ ، ولكن الانسحاب ايضا من مدينة القنيطرة

المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، واعيدت العلاقات الدبلوماسية بين سوريا والولايات المتحدة خلال فترة زيارة نيكسون لدمشق . وقام نيكسون اثناء جولته هذه بالتوقيع على عدد كبير من الاتفاقيات الاقتصادية والفنية مع الزعماء العرب ، ولعل أهمها التعهد بتقديم مساعدة امريكية فى توليد طاقة ذرية فى مصر ، وارتفعت مكانة الامريكيين الى ذرا جديدة فى العالم العربى فى أعقاب زيارة نيكسون له . ومن الواضح ان الزعماء السوفيت شعروا بالقلق ازاء هذا الاتجاه .

ومع ان وسائل الاعلام السوفيتية انتقصت من قدر زيارة نيكسون لمنطقة الشرق الاوسط فقد رحبت بزيارة الرئيس الامريكى للاتحاد السوفيتى فى نهاية شهر يونيو باعتبارها برهانا يؤكد فعالية الوفاق . وفى الوقت الذى وصل نيكسون فيه الى موسكو كان السناتور الامريكى هنرى جاكسون ، العدو القديم للاتحاد السوفيتى وأحد كبار المرشحين عن الحزب الديمقراطى لرئاسة الجمهورية عام ١٩٧٦ ، فى طريقه الى بكين بناء على دعوة من الصينيين الذين حددوا موعدا لهذه الزيارة يتفق مع موعد اجراء المحادثات بين نيكسون وبريجنيف . وابرز وجود هنرى جاكسون فى بكين انذاك العلاقة المثلثة الاضلاع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين الشيوعية . ومع هذا ، لم يمض الوضع فى الشرق الاوسط بلا مناقشة ، فقد أعلن كل من بريجنيف ونيكسون فى بيانهما المشترك الذى صدر بعد انتهاء المباحثات « ان الجانبين يعتقدان أن ازالة خطر

الحرب والتوتر فى منطقة الشرق الاوسط عمل له اهميته وينطوى على قدر كبير من الالحاح ... ويرى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة باعتبارهما مشتركين فى رئاسة مؤتمر جنيف للسلام الخاص بالشرق الاوسط انه من الاهمية بمكان ان يستأنف المؤتمر اعماله فى اسرع وقت ممكن ، على أن تناقش فى المؤتمر مسألة اشتراك أطراف أخرى من منطقة الشرق الاوسط ... ويرى الجانبان ان الهدف الرئيسى من مؤتمر جنيف للسلام هو اقرار سلام عادل ودائم فى الشرق الاوسط .. وهو انجاز سيسعيان الى تحقيقه بجميع الوسائل . واتفقت الدولتان على ان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة سيظلان على صلة وثيقة بعضهما ببعض بهدف تنسيق جهودهما لاقرار تسوية سلمية فى الشرق الاوسط (مع التأكيد على هذه العبارة) .

وابرزت الدعاية السوفيتية تأكيد البيان الختامى على دور الفلسطينيين فى تسوية سلام ، وكان جروميكو يجتمع بياسر عرفات بصفة منتظمة خلال المفاوضات الخاصة بالتوصل الى اتفاق الفصل بين القوات السورية والاسرائيلية ، وابرزت الصحف السوفيتية انباء هذه الاجتماعات بغية تعزيز علاقات الاتحاد السوفيتى بمنظمة التحرير الفلسطينية .

فقد راود الزعماء السوفيت الامل على نفس النحو الذى شعروا به بعد حرب اكتوبر بأنهم بزيادة صلاتهم بالفلسطينيين يدعمون وجود قوة مناهضة للغرب فى الشرق الاوسط .

وكان الفلسطينيون من جانبهم فى حاجة الى العون السوفيتى أكثر من اى وقت مضى ذلك لان معاهدة الفصل بين القوات الاسرائيلية والسورية ـ التى حاولت جماعات الفلسطينيين عرقلة ابرامها بشنها هجمات على المستعمرات الاسرائيلية فى كيريات شمونه ومعالوت ـ قد تركت الفلسطينيين يقفون بمفردهم فى ذلك الوقت على أقل تقدير فى مواجهتهم مع اسرائيل .

وفى اعقاب توقيع الاتفاقية السورية الاسرائيلية للفصل بين القوات عقد المجلس الوطنى الفلسطينى اجتماعا فى القاهرة لتحديد اتجاه الحركة الفلسطينية . وكان المجلس عبارة عن تنظيم شبه برلمانى مكون من ممثلين عن جميع المنظمات الفلسطينية المتباينة . ووضع المجلس الوطنى الفلسطينى عقب مناقشة دامت لفترة طويلة برنامجا مكونا من عشر نقاط لم تتفق جميعا وهدف الزعامة السوفيتية . ورفض البرنامج فى أول نقاطه الاشتراك فى مؤتمر جنيف بمقتضى المادة ٢٤٢ طالما انها تتحدث عن العرب الفلسطينيين فقط باعتبار مشكلتهم « مشكلة لاجئين » . وجاء فى النقطة الثانية : « ان منظمة التحرير الفلسطينية ستناضل بجميع السبل ، وفى مقدمتها الكفاح المسلح من أجل تحرير الارض الفلسطينية فى الوقت الذى تعارض فيه أى اتفاق مع

اسرائيل » . وبالرغم من معارضة الزعامة السوفيتية لرفض الفلسطينيين حضور مؤتمر جنيف أو التعامل مع اسرائيل فقد رحبت بحرارة بالنقطة التاسعة من البرنامج وهى « أن منظمة التحرير الفلسطينية ستناضل من أجل دعم تضامنها مع الدول الاشتراكية وقوى التحرير والتقدم فى العالم من أجل احباط جميع المخططات الرجعية » .

وحدث فى أعقاب هجوم شنه الفلسطينيون الذين يمارسون نشاطهم من ميناء صور اللبنانى على مدينة نهاريا الساحلية الاسرائيلية فى أواخر شهر يونيو ان ردالاسرائيليون عليه بالهجوم على ثلاث موانىء لبنانية فى محاولة من جانبهم لردع الحكومة اللبنانية عن منح الفلسطينيين مناطق ساحلية وانتهزت الزعامة السوفيتية فرصة هذه الهجماتالاسرائيلية لتقديم مساعدتها الى لبنان ضد اسرائيل لتظهر مرة ثانية بمظهر نصير العرب .

وعلى أى حال فقد تم استدعاء مجلس الدفاع التابع للجامعة العربية للاجتماع فى اوائل شهر يوليو سنة ١٩٧٤ للنظر فى امر الهجمات الاسرائيلية على لبنان ، واثنىالتعليق السوفيتى على المؤتمر وعلى التضامن العربى تأييدا للبنان ، ومع هذا لم يكتف الزعماء السوفيت بمجرد تشجيع التأييد العربى للفلسطينيين واللبنانيين فى مواجهة الهجمات الانتقامية الاسرائيلية . اذ واصل الزعماء السوفيت جهودهم لاقناع الفلسطينيين بالاشتراك فى مؤتمر جنيف بهدف الوصول الى اقامة دولة عربية فلسطينية على الضفة الغربية

وغزة ، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه مناقشات جادة من أجل اعادة عقد مؤتمر جنيف للسلام .

وفى هذا الوقت الذى ناصرت فيه الزعامة السوفيتية قيام دولة فلسطينية وحاولت كسب تأييد العرب لوجهة نظرها أصاب التدهور علاقات الاتحاد السوفيتى بمصر فاستعل الزعماء السوفيت القضية الفلسطينية من جانبهم فى محاولة لعزل الرئيس السادات واحراجه فلقد غضب الروس من الترحيب المصرى الجياش بالرئيس نيكسون الذى فاق الترحيب الذى لقيه خروشوف عام ١٩٦٤ أو بودجورنى عام ١٩٧١ بالاضافة الى الاتفاقيات المصرية — الامريكية العديدة التى ابرمت خلال زيارة نيكسون ، وبدا فى نظرهم ان مصر تتحرك فى اتجاه المعسكر الامريكى بخطوات كبيرة . وابدت الزعامة السوفيتية فعلا بعد انتهاء مؤتمر القمة السوفيتى الامريكى بفترة قصيرة عدم رضاها عن سياسة السادات بتأجيلها المفاجىء للزيارة التى كان من المقرر ان يقوم بها وزير الخارجية المصرى لموسكو والتى كان من المفروض ان تمهد لمؤتمر القمة بين السادات وبريجنيف .

ومع هذا لم يؤد هذا التصرف الى اثناء الرئيس السادات — الذى كان قد حصل لتوه على قرض من المانيا قيمته ٢٠٠ مليون دولار — عن تحسين علاقاته مع الولايات المتحدة على نحو اكبر فى منتصف شهر يوليو ، فقد وقع اتفاقيات يومى ١٧ و ١٨ من يوليو لتأمين الاستثمارات الامريكية فى الاقتصاد المصرى والسماح لاربعة بنوك امريكية كبرى

(تشيس مانهاتن ، وفيرست ناشيونال سيتى ، وامريكان اكسبريس ، وبنك اوف امريكا) ببدء الاعمال فى مصر .

وازدادت العلاقات تدهورا بين مصر والاتحاد السوفيتى اكثر من ذى قبل فى ١٨ من يوليو ، فقد اتهم الرئيس السادات الروس فى حديث ادلى به لمجلة (الحوادث) الاسبوعية اللبنانية بمحاولة تقييد حرية مصر فى تحديد سياستها الخارجية . وردت الزعامة السوفيتية على هجمات السادات وتحوله فى اتجاه الولايات المتحدة فنشرت مقالا كبيرا فى جريدة (ازفستيا) عن الشرق الاوسط بقلم رئيس تحريرها ، شن فيه هجوما تفصيليا على « نزعة معاداة السوفيت فى مصر » واثناء هجوم ازفستيا على سياسة الرئيس السادات الاقتصادية كان مراسل جريدة (نيوتايمز) يهاجم الرئيس السادات لاتفاقه مع الملك الاردنى حسين على أن العاهل الاردنى وليس منظمة التحرير الفلسطينية هو ممثل الفلسطينيين الذين يعيشون فى مملكته التى تضم الضفة الغربية واشار مراسل نيوتايمز فى المقال الى قلق السوفيت حيال الاتجاهات الحالية فى الشرق الاوسط . وبلغ احتضان السوفيت للقضية الفلسطينية قمة جديدة فى نهاية شهر يوليو حينما دعت الزعامة السوفيتية ياسر عرفات الى زيارة موسكو . وقامت الصحافة السوفيتية اثناء زيارة عرفات بتغطية لم يسبق لها مثيل للمسألة الفلسطينية تضمنت تقريرا من ست صفحات فى جريدة (نيو تايمز) ومقالا من ٣٧٠٠ كلمة فى جريدة (ازفستيا) . واكدت

الزعامة السوفيتية ثانية ابان المحادثات مع عرفات والوفد المرافق له اعترافهابالمنظمة الفلسطينية « ممثلا شرعيا وحيدا لشعب فلسطين » ووافق السوفيت على فتح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية فى موسكو . وفى مقابل ذلك اثنى وفد منظمة التحرير الفلسطينية ـ الذى ضم أحد الشيوعيين الاردنيين (ربما كمحاولة لاسترضاء الروس) ـ شفهيا ، كما هى عادته مع الاتحاد السوفيتى ، لتأييده ومساعدته المطلقة وللسياسة التى تسير وفقا لمبادىء محدودة .

ولكن سرعان ماواجه الاتحاد السوفيتى ، بعد رحيل عرفات ، مشكلة أكثر اهمية فى نظر الزعامة السوفيتية من مشكلة فلسطين وهى : الاستقالة المفاجئة للرئيس الامريكى نيكسون الذى وضع سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتى . وتولى (جيرالد فورد) السلطة فى الولايات المتحدة فى وقت كانت فيه سياستها حيال الشرق الاوسط فى حالة تغير مستمر . ففى الوقت الذى تحركت فيه مصر فى الاتجاه نحو الولايات المتحدة تحركت ليبيا نحو الاتحاد السوفيتى . ولكن أسس هذه التحالفات لم تكن ثابتة أو دائمة ، وكانت الدول العربية المنتجة للبترول تكدس أموالا بلغت من الضخامة بحيث جعلت الاقتصاديات الغربية تئن تحت وطأة دفع أربعة امثال سعر البترول العربى ، وهو تطور انطوى على عدد من الاخطار بالنسبة لمستقبل نمو العلاقات العربية مع الغرب . وفى الوقت نفسه اندلع لهيب

حرب قبرص من جديد بينما تم مؤقتا نزع فتيل الصراع العربى ـ الاسرائيلى ، فقد ظل بلا حل من أساسه .

وظهرت دلائل بحلول الوقت الذى تولى فيه فورد رئاسة الجمهورية الامريكية على انه من المحتمل اندلاع حرب اخرى فى المستقبل القريب نظرا لعدم اتخاذ خطوات اخرى نحو التوصل الى اتفاقية سلام عربية اسرائيلية ، وربما يحدث ذلك فى ٣٠ من نوفمبر وهو موعد انتهاء التفويض الممنوح لقوة الامم المتحدة المرابطة بين اسرائيل وسوريا . وكانت الحكومة الاسرائيلية تشكو من انتهاك سوريا لاتفاقية الفصل بين القوات ، ومن تدفق الاسلحة السوفيتية المحولة الى سوريا . واحتجت سوريا من جانبها على ما وصفته بأنه استعدادات اسرائيلية لشن حرب جديدة تتضمن تعبئة الاحتياطى الاسرائيلى فى يوم واحد .

وفى محاولة من جانب كيسنجر وفورد للحفاظ على استمرار قوة الدفع من أجل اقرار السلام استقبلا مجموعة من زعماء الشرق الاوسط فى شهرى اغسطس وسبتمبر ، وذلك ضمن مسعى زعماء الولايات المتحدة لاتخاذ الموقف الامثل استعدادا للمرحلة القادمة من محادثات السلام . ثم زار واشنطن اسحق رابين رئيس وزراء اسرائيل الجديد فى منتصف سبتمبر واجرى عددا من المحادثات مع فورد وكيسنجر فى الوقت الذى تعرض فيه لضغط داخلى مكثف لحمله على عدم التنازل عن المزيد من الاراضى بدون قيام العرب بتحركات ملموسة نحو اقرار السلام . وعرض بعد

هذه الاجتماعات صيغة لمعاهدة عدم اعتداء من جانب العرب . وقال انها ستكون ثمنا مقبولا لاى انسحاب اسرائيلى آخر . وصرح رابين بأن فى وسع مصر اظهار نواياها الطيبة بانهاء مقاطعتها الاقتصادية لاسرائيل مقابل المزيد من الانسحاب من سيناء . ووقع اختيار رابين على مصر كهدف لدبلوماسية اسرائيل لانه شعر بأن مصر تمسك بيدها مفتاح اقرار سلام عربى - اسرائيلى دائم ، وصرح رابين فى البرنامج التليفزيونى الامريكى ، فى مقابلة للصحفيين وفى معرض مناقشته لموقف مصر ، بقوله :

« لو تطلعت الى الوراء عبر تاريخ الصراع العربى - الاسرائيلى ستدرك أن العالم العربى لم يفعل أى شىء بدون أن تكون مصر هى التى قادته اليه سواء اكان حربا أم خروجا من حرب .. واعتقد ان هناك آمالا ونرجو أن تكون هناك دلائل على أن مصر لديها نوع من أنواع الاستعداد لاقرار السلام » .

وبينما كان تنسيق الاستراتيجية فى مفاوضات السلام أحد أهداف زيارة رابين لواشنطن فقد كان هدفه الثانى هو الحصول على كمية كافيةمن الاسلحة اذا فشلت مفاوضات السلام . ويبدو كما لو كان رابين قد حقق نجاحا فى مطلبه بالحصول على أسلحة ، لانه اعلن فى مؤتمر صحفى عقده فى قصر بلير هاوس يوم ١٣ من سبتمبر قائلا : « لقد توصلنا الى تفاهم حول علاقتنا العسكرية المستمرة ، وذلك بطريقة ايجابية وبنتائج ملموسة » ولاستياء الزعامة السوفيتية من استمرار احتلال واشنطن لمحور الدبلوماسية الخاصة

بالشرق الاوسط فقد اغتنمت فرصة زيارة رابين لتؤكد دعم الولايات المتحدة لاسرائيل . وعلق مقال افتتاحي بصحيفة (نيو تايمز) على هذه الصورة بقوله : لقد انتهى رئيس وزراء اسرائيل اسحق رابين من زيارته للولايات المتحدة التى استغرقت اربعة أيام ، وهو يعرف جيدا كيف يشق طريقه فى واشنطن باعتباره سفيرا سابقا لدى حكومتها . وقد وافقت الولايات المتحدة طبقا لما رددته الانباء الصحفية على ان تستكمل اسرائيل ٥٠ قاذفة مقاتلة من طراز فانتوم بحلول الصيف القادم . كذلك ستحصل تل ابيب على عدد من الدبابات من طراز ام ٦٠٠ يتراوح بين ٢٠٠ و ٢٥٠ دبابة ، وصواريخ موجهة بأشعة ليزر . وسوف يكون هذا كله جزءا من (المعونة الحالية) التى تقدمها الولايات المتحدة لاسرائيل، والتى اعتمد الكونجرس لها ٢ر٢٠٠ مليون دولار . ويقول المسئولون الامريكيون أن رابين حقق تقدما أيضا فيما يتعلق ببرنامج شحنات الاسلحة الامريكية لاسرائيل علىالمدى البعيد . ومن المحتمل ان الوعد الذى تلقاه رئيس الوزراء الاسرائيلى بالحصول على الشحنات هو الذى دفعه ، كما قال هو بنفسه ، الى اتخاذ موقف متشدد « بشأن تسوية الشرق الاوسط »

وفى الوقت الذى لم يشعر العرب فيه بالسرور للدعم الذى حصل عليه رابين فى واشنطن وقع حادث آخر فى غضون أقل من اسبوع بعد زيارة رئيس وزراء اسرائيل للولايات المتحدة وأدى الى توتر العلاقات العربية الامريكية .

اذ قرر الرئيس فورد محاولة معالجة مشكلة التضخم التى تهدد بتقويض اقتصاديات الحلفاء فى حلف شمال الاطلنطى واليابان ــ وهى مشكلة زاد من حدتها ارتفاع اسعار البترول الى اربعة امثالها ــ فاصدر نداء للتعاون بين الدول المنتجة للمواد الغذائية وبين الدول الاخرى المنتجة للطاقة فى العالم ، ووجه فى الاونة نفسها تهديدا مقنعا بما قد يحدث اذا لم يتحقق هذا التعاون . واعلن فورد فى حديثه امام الامم المتحدة فى ١٨ من سبتمبر قوله : « ان الولايات المتحدة تدرك المسئولية الخاصة التى تتحملها بوصفها اكبر دولة منتجة للمواد الغذائية فى العالم » . ووجه فورد تحذيرا أقوى مما تضمنه خطابه فى الامم المتحدة بشأن الغذاء فى حديثه أمام مؤتمر الطاقة العالمى التاسع الذى عقد فى ديترويت بعد ذلك بخمسة أيام ، قال :

« لا يمكن للامم ذات السيادة ان تسمح بأن تملى عليها سياسات أو يقرر مصيرها عملية تلاعب مصطنعة أو تشويه لاسواق السلع العالمية ، ومن شأن الاسعار المفرطة الارتفاع ان تشوه الاقتصاد العالمى ، ومواجهة المخاطرة بوقوع حالة كساد على نطاق العالم أجمع والتهديد بانهيار النظام العالمى والامان العالمى ، ومن العسير مناقشة مشكلة الطاقة بدون اللجوء لسوء الحظ الى استخدام عبارات تذكرنا بيوم القيامة والخطر واضح وهو بالغ القسوة »

وكان رد فعل الدول المصدرة للبترول ، ومعظمها دول عربية ، على مطلب الولايات المتحدة بخفض أسعار البترول

قويا ومريرا فى معظم الاحيان . وذهبت صحيفة النهار البيروتية فى اطار رد الفعل العنيف الى حد الزعم فى عنوان رئيسى بأن « امريكا تعلن الحرب على العرب الاغنياء بالبترول » ولا مرية فى أن الخوف من احتمال تدخل الولايات المتحدة عسكريا للاستيلاء على حقول بترول الشرق الاوسط وصل حدا دفع وزير الدفاع الامريكى جيمس شليزنجر لان يصرح فى مؤتمر صحفى عقده يوم ٢٥ من سبتمبر بأن الولايات المتحدة لا تفكر فى القيام بعمل عسكرى ضد الدول المنتجة للبترول فى الشرق الاوسط ، ولكنها تحاول ايجاد حل لاسعار البترول الاخذة فى الارتفاع من خلال اجراء مناقشات ودية .

وانتهزت الزعامة السوفيتية فرصة التحذيرات التى صدرت عن فورد وكيسنجر فى الامم المتحدة بغية تقويض مركز الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط . فكتب مراسل (برافدا) فى معرض تناوله للخطب التى القيت فى الامم المتحدة : « هددت الولايات المتحدة الامريكية بخفض المعونة الاقتصادية وشحنات مواد الغذاء المرسلة للدول التى ترفع اسعار البترول أو تخفض انتاج البترول بنسبة النصف » ووصفت جريدة (كايهان) الايرانية اجراء واشنطن بأنه لا يقل مستوى عن « التدخل فى الشئون الداخلية لدول ذات سيادة » واعلنت جريدة (الشرق) البيروتية ان شعوب الدول العربية لن تخضع للتهديدات باستخدام القوة ، ولن تتسامح فى التدخل فى شئونها الداخلية وسياساتها الاقتصادية .

وشرع كيسنجر فى القيام بجـولة اخـرى بين دول الشرق الاوسط فى اوائل شهر اكتـوبر وكانت مصر هى الهدف الرئيسى لدبلوماسية وزير الخارجية . هـذا على الرغم من أن كيسنجر كان يخالجه كذلك أمل فى التوصل الى اتفاق اسرائيلى ـ اردنى ، ومع هذا ولسوء حظ كيسنجر فان الرئيس السادات لم يبرهن على مرونة بالنسبةللولايات المتحدة كشأنه فى المناسبات السـابقة . ولم يكن الزعيم المصرى على استعداد للموافقة على وقف المقاطعةالاقتصادية العربية ضد اسرائيل ، كما كان يريد رابين ، أو لتقديم أى تنازل سياسى آخر لاسرائيل فى مقـابل انسحاب اسرائيلى آخر . ولكن الرئيس السادات كان من الدبلوماسية بحيث لم يرفض محاولات كيسنجر مباشرة ، وقرر بدلا من ذلك أن يعلن ان ابرام اية اتفاقية اسرائيلية مصرية أخرى رهن بانسحاب اسرائيل من مرتفعات الجولان والضفة الغربية مع منح هذه المنطقة الاخيرة لمنظمة التحرير الفلسطينية وليس للملك حسين ، واتضح التحول الذى طرأ على سـياسـة السادات بادىء ذى بدء فى ٢٢ من سـبتمبر عقب زيارة رابين لواشنطن بأسبوع . واتخذ الزعماء العرب المجتمعون فى مؤتمر تنسيق عقد فى القاهرة ـ وضم مصر وسـوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية ومقاطعة الملك حسين ـ خطوتين بالغتى الاهمية بالنسـبة لمفاوضـات السـلام العربيـة ـ الاسرائيلية . ولقد وافقوا اولا على (رفض أية محاولةلتنفيذ تسويات سياسية جزئية واعتبار قضـية العرب قضـية واحدة) واتفقت الدول المشتركة فى المؤتمر للمرة الثانيـة

على ان منظمة التحرير الفلسطينية هى « الممثل الشرعى الوحيد لشعب فلسطين » . وكان السادات بموافقته على هاتين النقطتين يقول للولايات المتحدة انه لا يمكن اجازة اتفاقية اردنية ـ اسرائيلية لان منظمة التحرير الفلسطينية هى التى يمكنها بمفردها الحديث نيابة عن الضفة الغربية . وأن مصر لا تستطيع اتباع سياسة منفردة بعيدة عن حلفائها .

وليس من المستغرب ان جهود كيسنجر الدبلوماسية لم تحرز تقدما كبيرا خلال زيارته للقاهرة فى اوائل شهر اكتوبر اذا وضعنا فى الاعتبار عدم استعداد السادات للتوصل الى اتفاق مع اسرائيل بالاضافة الى التغييرات الاخرى فى سياسة مصر . ومع هذا فقد نجح كيسنجر فى ان يحصل على موافقة الرئيس السادات على مد التفويض الممنوح لقوة الامم المتحدة المرابطة بين الجيشين الاسرائيلى والمصرى فى صحراء سيناء لمدة ستة اشهر اخرى . وربما كانت موافقته هذه ترجع الى انه بدا عاجزا عن اظهار ان فى وسعه تنفيذ الخيار بالعودة الى الحرب اذا قرر ذلك نتيجة لعدم استئناف التدفق المستمر من الاسلحة وقطع الغيار السوفيتية كما كانت عليه الحال قبل حرب اكتوبر .

وفى الوقت الذى كانت مصلحة مصر التى عبر عنها وزير خارجية مصر لدى زيارته موسكو هى الحاجة الى الحصول على المزيد من الاسلحة السوفيتية كان الزعماء الروس يفكرون فى اهداف اخرى . وبدا واضحا ان الروس غير راضين

عن تحــول اقتصـــاد مصر فى اتجــــاه الغــرب . فقـــد واصـــل مقـــال نشرته جريدة البرافــدا عشية زيارة وزير خارجيــة مصر لموسكو توجيــه نقــد الزعامة الســوفيتية لسياسات مصر التى تتسبب فى ضعف القطاع العـــام فى الاقتصاد المصرى وتشجيع الاستثمار الاجنبى . أضف الى ذلك أن بريجنيف زعيم الحزب الشيوعى أوضح معارضته لنوع الدبلوماسية التى يمارسها كيسنجر فى تعـامله مـــع المصريين ، وذلك فى خطاب سياسى هام القاه فى كيسنيف يوم ١١ من أكتوبر ، ودعا الزعيم السوفيتى الى أستئناف مؤتمر جنيف على وجــه السرعة حيث سيكون الاتحـــــاد السوفيتى شريكا على قدم المساواة مع الولايات المتحـــدة فى الاشراف على مفاوضـــات السلام الخاصـــــة بالشرق الاوسط . ولم يرد فى البيان المشترك الذى صـــدر عقب انتهاء زيارة وزير خارجية مصر اى ذكر لمسألة أستئناف ارسال شحنات الاسلحة السوفيتية الى مصر . وربما كان هذا يعكس طبيعة العــلاقات السوفيتية ـ المصرية التى ما تزال فاترة ، وكان هذا تناقضا ملحوظا لوعود بريجنيف بمواصلة تقديم معـــونة عسكرية للرئيس السورى حافظ الاسد الذى توقف برهــــة فى موسكو فى ٢٧ من سبتمبر وهو فى طريقه للقيام بزيارة رسمية لكوريا الشمالية . غير ان الزعامة السوفيتية وافقت مع هذا على قيــام بريجنيف بزيارة القاهرة فى يناير عام ١٩٧٥ . ومع هذا فقد وافق المصريون فى مقابل هذا على أنه لا يمكن اقرار تسوية كاملة

ونهائية لازمة الشرق الاوسط الا داخل اطار مؤتمر جنيف. ووافق الجانبان أيضا على انه لا يمكن تحقيق تسوية سلام نهائية « الا اذا تم ضمان الحقوق المشروعة للشعب العربى فى فلسطين ومن بينها حقه فى أن يكون له وطن » .

وابرزت الصحف السوفيتية نتائج زيارة وزير الخارجية المصرى لموسكو نظرا لان الزعامة السوفيتية رأت فى هذه الزيارة فرصة لاظهار صلاتها بأقوى الدول العربية ، على الرغم مما كان يساورها من مشاعر خيبة الامل فى الرئيس السادات .

وبعد أن ضمن الرئيس السادات وعد بريجنيف بزيارة مصر ، ومن ثم اظهر مقدرته على الوقيعة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، وجه اهتمامه الى مؤتمر قمة الزعماء العرب المنعقد فى الرباط بالمغرب حيث كان الصراع بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية يهدد مرة ثانية بتمزيق الائتلاف بين الدول العربية ، وعلى رأسها مصر . ولقد تمكنت الدول العربية عقب مناقشة حامية الوطيس استمرت عدة أيام من الحصول على موافقة الملك حسين على اعتراف بأن (منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى ، وأن لديها الحق فى اقامة سلطة فلسطينية مستقلة على أى أرض فلسطينية محررة) . وحصل حسين على وعد من الدول العربية الغنية بالبترول بمنحه هبة قدرها ٣٠٠ مليون

دولار ، وربما كان هذا مقابلا لموافقته على الاقلاع عن مزاعم الاردن بحقها فى التحدث نيابة عن الضفة الغربية .

ومع هذا فان الوحدة العربية فى مؤتمر الرباط لم تكن بمثل القوة التى صورتها بها الصحف السوفيتية فى دعايتها . اذ قاطع المؤتمر زعيم ليبيا القذافى ، واعلن الزعيم العراقى صدام حسين فى نهاية المؤتمر ، وعلى خلاف واضح مع سياسة الرئيس السادات انه سوف يكون التزام العراق بهذا القرار باطلا وملغيا لو ذهبت منظمة التحرير الفلسطينية الى جنيف ، او اذا اصبحت طرفا فى الاتصالات التى تجرى مع الولايات المتحدة .

وفى الوقت الذى تعرضت الجبهة الفلسطينية ذاتها لانقسام وذلك لتنديد جورج حبش زعيم المنظمة الوطنية لتحرير فلسطين علنا بعرفات رئيس منظمة التحرير وبقرارات مؤتمر الرباط كانت المنطقة تبدو وكأنها تقف على حافة الحرب نتيجة مؤتمر الرباط من ناحية ومن ناحية اخرى فانه نظرا لدعوة عرفات المستمرة باحلال دولة علمانية ديمقراطية مكان دولة اسرائيل شرع الاسرائيليون فى الاستعداد للحرب ، واعلن دوف زاكين ، احد زعماء حزب ما بام فى اسرائيل « انه لو فسرنا قرارات مؤتمر الرباط بصورة حرفية لن نجد هناك بديلا للحرب » .

وبذل كيسنجر جهدا للحيلولة دون اندلاع نيران الحرب فقام بزيارة اخرى لمنطقة الشرق الاوسط فى اوائل شهر

نوفمبر . ولقد كان فى امكان الرئيس السادات عند هـذه النقطة القيام بدور الشخصية المعتدلة قائلا لكيسنجر سوف نكون دائما على استعداد فى مصر لاستعادة أية أراضى يمكننا استعادتها . ولا اعتقد على الاطلاق أن مؤتمر الرباط قـد وضع اى عائق أمام سياسة الخطوة ــ خطوة . ومع هـذا فقـد أوضح الرئيس السادات أنه فى الوقت الذى سيوافق فيه على انسحاب اسرائيلى آخر فانه من المتعذر عليه ابرام أية اتفاقيات سياسية مع اسرائيل لتحقيق هذه الخطوة . وأشار الرئيس السادات لكيسنجر وهو يتخـذ هـذا الموقف الى انه لو أراد الحفـاظ على قوة الدفع الدبلوماسية الشخصية حيال اقرار السلام فسوف يسعد مصر التعاون فى هذا الصدد طالما كان فى وسع كيسنجر التوصل الى انسحاب اسرائيلى آخر بدون أن تتكبد مصر ثمنا سياسيا .

ولو كان الامل راود الرئيس السادات فى أن كيسنجر سيجد نفسه مرغما من خلال هذه المناورة السياسية على ممارسة ضغط على اسرائيل لحملهـا على الانسحاب غير المشروط ، فلا شك فى أن الخطاب الذى ألقاه عرفات أمام الامم المتحدة فى ١٣ من نوفمبر جعل مهمة وزير الخارجيـة الامريكية أشد صعوبة . فقد كرر عرفات فى خطابه دعوة منظمة التحرير الفلسطينية الى محو اسرائيل ، وحذر من انه اذا لم تتم الاستجابة لمطالبه فستواصل منظمة التحرير هجماتها الارهابية . وعارضت الولايات المتحدة بقوة كلا

من برنامج منظمة التحرير الفلسطينية لمحو اسرائيل وهجماتها التى وقعت أحداها أثناء مناقشات الامم المتحدة . والقى « جون سكالى » السفير الامريكى لدى الامم المتحدة خطابا قوى اللهجة تأييدا لحق اسرائيل فى الوجود كدولة ذات سيادة . وبينما رحب الاتحاد السوفيتى من جانبه بزيارة عرفات للولايات المتحدة حرص على مواصلة تأكيده بأنه فى الوقت الذى يحق فيه لمنظمة التحرير الفلسطينية اقامة دولة ، فان اسرائيل أيضا لها الحق فى الوجود . ولا جدال فى أن الزعامة السوفيتية لم تكن ترغب فى استعداء قطاعات هامة من الرأى العام الامريكى بتأييدها لمطالب منظمة التحرير الفلسطينية بازالة اسرائيل وهى تضع فى اعتبارها التأييد الامريكى القوى لاسرائيل وتحديد يوم ٢٣ من نوفمبر موعدا لانعقاد مؤتمر القمة بين فورد وبريجنيف ، ولا سيما فى ضوء مناقشة اتفاقيات جديدة للحد من الاسلحة الاستراتيجية فى مؤتمر القمة وحاجة الاتحاد السوفيتى الى الخبرة التكنولوجية الامريكية والى الحصول على منح طويلة الاجل لمساعدته فى تنفيذ خطته الخمسية القادمة التى كانت آنذاك فى مرحلة اعداد متقدمة .

وعلى الرغم من تصريح السوفييت والامريكيين على السواء بأن لاسرائيل الحق فى الوجود فقد بدا أن نذر الحرب أضحت أقوى ـ فقد شرع الاسرائيليون فى تعبئة

الاحتياطى وارسالهم الى مرتفعات الجولان بعد أن وصلهم نبأ يفيد بأن هناك ٢٠ سفينة سوفيتية تفرغ حمولتها من الاسلحة فى الموانىء السورية ، وبدا لبرهة كما لو كانت الحرب على وشك الاندلاع الى أن نجح التدخل الشخصى لهنرى كيسنجر فى تهدئة الموقف . ومع هذا فقد أدى الفزع من فكرة نشوب حرب الى تذكرة كل من بريجنيف وفورد بضرورة تناول مشكلة الشرق الاوسط والحد من الاسلحة فى مؤتمر القمة (بفلاديفوستوك) . وبالرغم من أن تفاصيل المفاوضات التى دارت فى مؤتمر القمة حول الشرق الاوسط لم تذع بعد فأغلب الظن ان فورد طلب من بريجنيف بصفة خاصة كبح جماح السوريين واقناعهم بالموافقة على مد التفويض الممنوح لقوة الامم المتحدة على الرغم من أنه ليس من المعروف بعد الى أى حد كان القرار السورى يرجع الى الضغط الروسى أو الى السياسات الداخلية او الى مصر لعدم استعدادها لدعم سوريا فى أى حرب جديدة .

وقد أحتل الشرق الاوسط جزءا صغيرا ، وان كان هاما ، فى البيان المشترك الذى صدر عقب انتهاء اجتماع الزعيمين فى فلاديفوستوك ، وهو اجتماع كان معنيا من أساسه بالعمل على التوصل لاتفاقية جديدة للحد من انتاج الاسلحة النووية . وجاء بذلك الجزء من البيان المشترك الخاص بالشرق الاوسط مايلى :

« أعرب الجانبان خلال تبادلهما الاراء بشأن الشرق الاوسط عن قلقهما بشأن الوضع الخطير فى تلك المنطقة .

وقد أكد الجانبان من جديد نيتهما فى بذل جميع الجهود من أجل التوصل الى حل للقضايا الرئيسية الخاصة باقرار سلام عادل ودائم بما يتفق وقرار الامم المتحدة رقم ٢٣٨ مع الاخذ فى الاعتبار على نحو مناسب مراعاة الحقوق المشروعة لجميع شعوب المنطقة ومن بينها الشعب الفلسطينى ، واحترام جميع دول المنطقة فى الوجود المستقل . ويعتقد الجانبان بضرورة أن يقوم مؤتمر جنيف بدور هام فى اقرار السلام العادل والدائم فى الشرق الاوسط ، وانه يجب استئناف أعماله بأسرع ما يمكن » (مع التأكيد على العبارة الاخيرة) .

وعلى الرغم من أن البيان المشترك كان غامضا من ناحية التفاصيل فقد بدا أشبه بحل وسط بين الجانبين . فمن ناحية كانت تلك العبارة المؤيدة لحق جميع دول الشرق الاوسط فى أن يكون لها وجود مستقل (تعد رفضا صريحا لبرنامج منظمة التحرير الفلسطينية بمحو اسرائيل) بل لا جدال فى أن تأييد الاتحاد السوفيتى لمنظمة التحرير الفلسطينية اضعف مما بدا عليه فى البيان المشترك الذى صدر عقب محادثات نيكسون — بريجنيف قبل ذلك بأربعة أشهر . ومع هذا ، فقد تمكنت الولايات المتحدة من مواصلة العمل على انعاش احتمال قيام كيسنجر

المتجول بالمزيد من النشاط نظرا لعدم تحديد اى موعد لاستئناف محادثات جنيف .

وكان مؤتمر قمة فلاديفوستوك بين فورد وبريجنيف ـ الذى بدا وكأنه قد قلل من خطر نشوب حرب بين اسرائيل وجيرانها العرب ، ولو بصفة مؤقتة ـ نقطة طيبة كى يبدأ المرء منها فى وضع عدد من النتائج المستخلصة من مسار السياسة السوفيتية فى الشرق الاوسط خلال فترة السنوات الاربع التى انقضت منذ وفاة ناصر ، وكانت من أكثر الاعوام التى عرفتها المنطقة اضطرابا .

الفصـــل السادس

استنتاجات

فى وسع المرء أن يستخلص من تقييمـــه للسياسـة السوفيتية حيـال الشرق الاوسط منـــذ وفاة ناصر فى سبتمبر ١٩٧٠ حتى انعقاد مؤتمر قمة فلاديفوستوك فى نوفمبر سنة ١٩٧٤ أن السياسة السوفيتية أزاء المنطقـة كانت من أساسها عبارة عن رد فعل لسلسلة من التطورات الاقليميـة التى لم تسهم الزعامة السوفيتية فى ظهـورها فحسب ، ولكنها أيضا عجزت على نحو متزايد عن صياغتها لتتلاءم مع الاهداف السوفيتية فى المنطقة . كما ان مركز السوفييت فى الشرق الاوسط عام ١٩٧٤ كان أضعف بكثير مما كان عليه فى عام ١٩٧٠ . وقد تعرض مركز السوفييت لخسارة فادحة فى يوليو عام ١٩٧١ عندما أطلق انقـــلاب فاشل أيده الشيوعيون فى السودان العنان لموجة من العداء للشيوعية والعداء للسوفيت فى طـول العـــالم العـربى وعرضه . كما ان الاتحاد السوفيتى بعد ذلك بعام تعرض للطمة أخرى حينما طردت القوات السوفيتية من قواعدها الجوية والبحرية فى مصر ، وبذلك ضعف مركز السوفييت الاستراتيجى شرقى البحر المتـوسط . وفى الوقت الذى

سارع فيه الزعماء السوفيت الى استغلال الاحداث مثـل مذبحة ميونيخ فى سبتمبر ١٩٧٢ والحرب العربيـــة ـ الاسرائيلية فى اكتوبر ١٩٧٣ تجاوزتهم الاحـداث ووجدوا انفسهم فى وضع أسوأ فى المنطقة بعد الحرب مما كانوا عليه قبلها . أما الزعماء العرب فى منطقة الشرق الاوسط التى كانت الزعامة السوفييتية لا تألو جهدا فى خطب ودهم خلال هذه الفترة فقد أصروا ، وهم يقبلون المعونة السوفيتية ، على اتباع سياساتهم هم حتى حينمـــا تعارضت هـــذه السياسات مع سياسة الاتحاد السوفيبى .

ويتضح من هذه الاحداث أن النفـــوذ السوفيتى فى الشرق الاوسط كان محدودا جـدا بلا ريب . وعلى الرغم من الكميات الهائلة من المساعدات العسكرية والمعـــونات الاقتصادية الضخمة التى قدمتها الزعامة السوفيتية لعدد من دول المنطقة فقد عجزت عن التـــأثير على الشخصيات البارزة فى المنطقة لاقناعهم باتباع سياسات تتفق مع مواقف السوفيت فى عدة قضايا رئيسية .

واتضح هذا بأجلى صورة فى مصر حينما كان الاتحـاد السوفييتى يسيطر فى وقت وفاة ناصر على عدد من القواعد البحرية والجوية فى الوقت الذى كان يقوم فيه أيضا بدور فعال ، وان لم يكن مهيمنـــا على حيـاة مصر السياسية والاقتصادية . ومع هذا فانه حينما خلف الرئيس السادات الزعيم الراحل جمال عبد النـــاصر سرعان ما اشتبك فى

خلاف مع الاتحاد السوفيتى ، وبحلول نوفمبر سنة ١٩٧٤ قـــوض الرئيس المصرى مركـــز الســـوفيت فى مصر التى تعتبر أهم دولة فى العالم العربى ، نظرا لضخامة عدد سكانها وموقعها الجغرافى وقوتها العسكرية . ونشب أول خلاف بين السادات والروس فى جنيف عام ١٩٧١ حينما ساعد الزعيم السودانى جعفر نميرى على استعادة سلطته ابان الانقلاب الذى أيده الشيوعيون ضـــد نظام حكمه . ووقع الاشتباك المصرى ـ السوفيتى الثـانى الخطير بعـد ذلك بعام حينما قام الرئيس السادات بطـرد الروس من قواعدهم فى مصر لامتعاضه من عدم تأييد السوفيت له فى مواجهته مع اسرائيل ، ثم اتجه صوب الولايات المتحدة . وهكذا تعرض الروس لخسارة مزدوجة ، فقد حرموا من قواعد استراتيجية هامة فى مصر ، واتجه حليفهم السابق لخصمهم الرئيسى طلبا فى الحصول على مساعدته . وبينما طرا تحسن على العلاقات السوفيتية ـ المصرية فى أعقاب غارات اسرائيل الانتقامية على لبنان وسوريا بعد مذبحـة الرياضيين الاسرائيليين فى دورة ميونيخ ، وكذلك عنـدما برهن الاتحـــاد الســـوفيتى عن استعداده لتزويد مصر بالاسلحة والدعم الدبلوماسى خلال الحـــرب العربيــة ـ الاسرائيلية فى أكتوبر عام ١٩٧٣ ، ولكن هـذه العـلاقات تدهورت بشدة مرة ثانية عقب الحرب حينما اتجه الرئيس السادات مرة أخرى صوب الولايات المتحدة نظرا لادراكه أن الفرصة سانحة لتحقيق هدف المصريين الخاص بضمان

انسحاب اسرائيل من صحراء سيناء المحتلة ، فى نفس الوقت الذى يحصل فيه على مساعدة اقتصادية . ولقد كان السادات خلال فترة رئاسته كلها يشجع على الاستثمار فى مصر ويعمل على توسيع نطاق القطاع الخاص ، وهى سياسات لم تكن تتفق اطلاقا وهوى الزعامة السوفيتية .

وبينما كانت الزعامة السوفيتية تواجه أكبر الصعوبات جميعها فى التأثير على سياسات نظام حكم الرئيس السادات الخارجية والداخلية فى مصر هبط النفوذ السوفيتى أيضا فى سوريا والعراق ـ الدولتين الرئيسيتين الاخريين اللتين تتلقيان العون الاقتصادى والعسكرى فى العالم العربى ، اذ رفض نظام حكم حافظ الاسد فى سوريا مطالبة السوفيت بابرام معاهدة صداقة على غرار المعاهدة السوفيتية ـ المصرية (غير الضارة كما ثبت بعد ذلك) فى الوقت الذى عارض فيه قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ ورفض الاشتراك فى مؤتمر السلام العربى ـ الاسرائيلى فى جنيف عام ١٩٧٣ والذى أشرف عليه الاتحاد السوفيتى الى جانب الولايات المتحدة . كذلك عارض النظام العراقى بزعامة حسن البكر عددا من السياسات السوفيتية الهامة ومن بينها قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ والقرار السوفيتى الامريكى بوقف اطلاق النار الذى أنهى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وفى الوقت الذى انعكس فيه نفوذ الزعامة السوفيتية المحدود فى العالم العربى فى هذه الخلافات

السياسية والتى رفض الزعماء العرب فيها تأييد الراى السوفيتى انعكس أيضا فى عدم استعداد الزعماء السوفيت أو عجزهم عن أحداث تغييرات خاصة بالشخصيات فى الدول العربية من أجل وضع السلطة فى يد زعماء أشد تعاطفا مع سياسات السوفيت . ونجح الرئيس السادات فى أن يبعد عن السلطة أكثر الشخصيات المصرية موالاة للسوفيت . وبرهنت الزعامة السوفيتية على عجزها عن التأثير على الاحداث . فكيف يمكننا اذن تفسير مواصلة تقديم معونة سوفيتية لهذه الدول واستعداد الزعامة السوفيتية لتأييد العرب الى حد المواجهة مع الولايات المتحدة خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ ؟

يجب أن لا يغيب عن ذهن المرء وهو يبحث عن اجابة لهذا السؤال الهدف السوفيتى الشامل فى الشرق الاوسط ، وهو محو النفوذ الغربى . فلقد كانت الزعامة السوفيتية التى تنظر الى سياسات الشرق الاوسط نظرة بعيدة المدى على استعداد لدفع ثمن باهظ فى شكل معونة اقتصادية وعسكرية للتخفيف من حدة مواقف الانظمة العربية الجامحة أملا فى خلق اتجاهات معادية للغربيين فى الشرق الاوسط أو تعزيزه ، أو على أقل تقدير تحويل اتجاهات معادية السوفيت الى الطريق العكسى . واستغلت الزعامة السوفيتية معونتها الاقتصادية ، والعسكرية بوجه خاص فى عدد من المناسبات لتعزيز السلوك المناهض للغرب الذى كان زعماء دولة عربيةما يزمعون على الاقدام عليه وهو

سلوك مفيد للاتحاد السوفيتى أيضا . ولعل النموذج لذلك هو تأميم العراق لحقول بترول شركة البترول العراقية فى كركوك حيث وعد الروس بتقديم معونة خاصة بالانتاج لدعم التأميم ، بينما شعر الروس بالسرور الاكيد حيال الضعف الذى دب فى الاحتكار البترولى الغربى . ولم يكن الدافع على اتخاذ قرار التأميم موجودا فى الاتحاد السوفيتى ولكنه كان موجودا لدى الحكومة العراقية التى ارادت أن تحقق السيطرة على الموارد الكبيرة للعملة الصعبة التى أعتمدت عليها خطط التنمية الاقتصادية بها . كذلك شجع الزعماء السوفيت بقوة الدول العربية على فرض الحظر البترولى ضد الولايات المتحدة ومواصلته ، وقد فعلت الدول العربية ذلك بالفعل ، ومع هذا فقد كان العرب يتصرفون فى وضوح من تلقاء أنفسهم كما ظهر حينما رفعوا الحظر على الرغم من جهود السوفيت لمواصلة فرضه . وفى نهاية الامر قدم الاتحاد السوفيتى أسلحة لمصر كى تقود الحرب ، ولكن قرار الحرب كان مصريا وليس سوفيتيا .

وفى معرض جهود الزعامة السوفيتية لتشجيع وتعزيز الاتجاهات المعادية للغرب فى الشرق الاوسط قامت كذلك بتغيير سياستها أزاء الاحزاب الشيوعية فى العالم العربى ، وكانت سياسة بريجنيف قد أبدت قبل ذلك الوقت تفضيلها لاقامة علاقات طيبة مع نظم الحكم ذات الحزب الواحد فى العالم العربى . وحاولت اقناع الشيوعيين العرب بضرورة رضائهم عند دورهم التعليمى

والدعائى أساسا باعتبارهم مدرسون يلقنون (مبـــادىء الاشتراكية العلمية لزعماء وجماهير الدول العربية) وبذلت الزعامة السوفيتية جهدا لازالة شكوك الزعمـــاء العـرب وعدائهم للاحزاب الشيوعية فى دولهم ، فشجعت الحـزب الشيوعى فى مصر على أن يحل نفسه وينضم الى الاتحـاد الاشتراكى العربى ، وبذلك يعمل من أجل ارساء عمـــد الاشتراكية من الداخـل (وترسيخ عـلاقات سوفيتية ـ مصرية طيبة) . وكذلك حثت الزعامة السوفيتية الحزب الشيوعى السودانى بأن يحل نفسه وينضم الى نظـام حكم نميرى القـائم على أساس الحزب الواحـد ، على أثر ثورة مايو ١٩٦٩ وتولى جعفر نميرى السلطة . ومع هذا فقد رفض قطاع هام من الحزب الشيوعى السودانى هذا الطلب ثم أيد انقلابا ضد نميرى فى يوليو ١٩٧١ ، وهو حدث ترك أثرا سلبيا للغاية على السياسة السوفيتية تجـاه العـالم العربى . وبدا واضحا للزعامة السوفيتية بعد هذه الواقعة ان سياسة الحث على حل الاحزاب الشيوعية العربية قـد فشلت ، ومن ثم بدأ نظـام حكم بريجنيف فى التشـجيع النشيط على قيام (جبهات وطنيـة) فى العـالم العربى يشترك فيها الشيوعيون كأحزاب ، وان كان من الواضح انهم سيكونون بمثابة شركاء صغار . وكان الحزب الشيوعى السوفيتى ـ بتأكيـده حقيقـة أن الشيوعيين يدركون أن الاحزاب الوطنية تمثل القوة المهيمنة فى كل جبهة وطنية ـ

يأمل فى التخفيف من حدة مخاوف الوطنيين العرب بأن الشيوعيين سيستغلون مراكزهم للاطاحة بنظم الحكم الوطنية . وفى هذه الآونة بدا واضحا ان الزعامة السوفيتية ترغب فى أن يساعد وجود الشيوعيين داخل نطاق الجبهة الوطنية على ابعاد الزعماء الوطنيين العرب عن الغرب والتصدى لمواجهة معاداة السوفييت التى اجتاحت الشرق الاوسط نتيجة لفشل محاولة الانقلاب الذى أيده الشيوعيون فى السودان . ومما يبعث على الاهتمام الشديد أن الحزب الشيوعى السوفيتى سعى أيضا — خلال تلك الفترة بأكملها — الى التأثير على نظم الحكم ذات الحزب الواحد بالدول العربية على نحو مباشر من خلال اقامة علاقات ، على مستوى الحزب . ومع هذا لم تكن هذه السياسات ناجحة بوجه خاص من حيث أهداف السياسة الخارجية السوفيتية فى العالم العربى — على الاقل على المدى القصير — فعلى سبيل المثال ان الحكومة البعثية العراقية التى أضعفها الانقلاب الذى تعرضت له بعد أن قامت بأنشاء جبهة وطنية فى نهاية الامر فى يوليو عام ١٩٧٣ ، لم يكن تصرفها الذى تضمن بعد ذلك رفض وقف اطلاق النار الذى أيده السوفيت فى حرب اكتوبر ، على ان انشاء الجبهة الوطنية جعل الحكومة العراقية أكثر اذعانا للمطالب السوفيتية بشأن قضايا اعتبرها العراقيون هامة ، وربما برهن وجود الجبهة الوطنية على المدى القصير على انه يحقق نتيجة عكسية من

وجهة نظر السوفيت ، اذ انه أدى ــ كما يبدو ــ الى تفاقم الصراع الكردى ــ العراقى مع انغماس الشيوعيين العراقيين انفسهم فى حرب مع الاكراد ، واضف الى ذلك أن وجود الجبهة لم يؤد الى اعتدال السياسة العراقية تجاه ايران نظرا لان ايران والعراق بعد تعاونهما لفترة وجيزة ابان حرب اكتوبر اشتبكا مرة ثانية فى قتال عنيف فى نهاية العام وبدا كما لو كان الاتحاد السوفيتى لم يحرز تقدما كبيرا فى محاولة احتواء هذا الصراع الذى كان يمثل عقبة كبيرة أمام تعاظم النفوذ السوفيتى فى الخليج . وبايجاز بدا كما لو أن نظم الحكم العربية قد اقامت علاقة حزبية مع الحزب الشيوعى الروسى وانشأت جبهات وطنية وسمحت للشيوعيين بالاشتراك فى حكوماتهم ــ فى مناصب اسمية ــ كوسيلة أساسية لاستخلاص المزيد من المساعدات الاقتصادية والعسكرية من الاتحاد السوفيتى وبدا أن ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ينتهج حاليا سياسة مشابهة .

وبينما كان عدد من الحكومات العربية يستغل رغبات السوفيت فى اقامة جبهات وطنية لم يبد الشيوعيون العرب حماسا كبيرا للسياسة السوفيتية الجديدة وانتقدوا سياسات السوفيت تجاه ما يطلق عليه اسم الحكومات الثورية الديمقراطية فى العالم العربى . ومع هذا فانه اذا ما وضعنا فى الاعتبار تلك السياسات غير المستقرة لدول الشرق الاوسط ، والقاعدة الضيقة للغاية التى تستند

اليها نظم حكم عربية فى المنطقة مثل النظم البعثية السورية والعراقية ، فقد يجد الشيوعيون العرب ما يغـــريهم على التحالف مع فئـة من فئـــات الجيش بدولة من الدول ، ثم يقومون بالانقلاب ويواجهون بعد ذلك الاتحاد السوفيتى بالامر الواقع .

ولا جدال فى أن الزعامة السوفيتية تحث الشيوعيين العرب على انتظار فرصة ملائمة مع ادراكهم بأن دفع نظم الحكم الثورية الديمقراطية فى اتجاه الاخذ بالاشتراكية عملية تستغرق وقتا جد طويل . وعلى اية حال فان اللوم يلقى على الاتحاد السوفيتى بسبب نشاطات الاحزاب الشيوعية العربيـــة سواء أكان هو المحرض لها أم لا . ومن المحتمـــل على نحـــو أكبر ، ان يثير الشيوعيون العرب فى المستقبل القريب مشكلات لصانعى السياسة السوفيتية فى الشرق الاوسط بأكثر من كونهم عونا لهم .

وفى الوقت الذى قامت فيـــه الزعامة السوفيتية بتغيير سياستها نحو الاحزاب الشيوعية العربية فى محاولة لكبح جماح الاتجاهات العدائية نحو السوفييت فى الشرق الاوسط أخذ الزعمـاء السوفييت يشـــجعون على اقامة صـــلة أوثق بعـــدد من الدول العربيـــــة والمنظمـــات الفلسطينية من أجل التصدى لتحركات مصر تجاه الولايات المتحدة والسعودية . وهكذا عمل الاتحــــاد السوفيتى فى

الفتـرة ما بين عامى ١٩٧٢ و ١٩٧٤ على تعزيز صـلاته بالعراق فقد وقع على معاهدة صداقة ومساعدة مع امدادها بالمعونة العسكرية لتعزيز مواجهتها لايران ولشن هجماتها ضد الاكراد . كذلك تحرك الاتحـاد السوفيتى أيضـا لتوسيع نطاق تعاونه الاقتصادى والعسكرى مع ليبيا التى شارك زعيمها معمر القـذافى السوفيت كراهيتهم مصر لتقاربها مع الولايات المتحدةوانحيازها للسعودية ومع هذا لا تعتبر ليبيا والعراق شركاء مثاليين للاتحـاد السوفيتى فى مسعاه لكسب النفوذ فى الشرق الاوسط . فكلتا الدولتين معزولتان فى واقع الامر عن العالم العربى ، بل انه مما لا ريب فيه أن عزلتهما هى السبب فى تحولهما الى ناحية الاتحـاد السوفيتى ، وفى الوقت الذى تقوم فيه الزعامة السوفيتية بتوسيع نطاق علاقاتها مع حكومتى ليبيا والعراق وتعميقها فانها تثير قدرا كبيرا من الشكوك فى الدول العربية الاخرى ولا سيما مصر والسودان والكويت ودولة الامارات المتحدة والسـعودية التى يعتبر زعمـاؤها ضـحايا النشاطات التخريبية التى يشجع عليها القذافى والبكر . وربما يبدو التحول السوفيتى عن مصر ــ أكثر الدول العربية هيبـة ومكانة ــ والاتجاه الى العراق وليبيـا ــ أكثرهـا عزلة ــ دلالة أخـرى على الضعف الذى يدب فى جسد مركـز السوفيت فى الشرق الاوسط منذ وفاة ناصر عام ١٩٧٠ على الرغم من أن الاقتصاد السوفيتى استفاد بلا جـدال من هـذا التغيير .

وأثناء جهود الزعامة السوفيتية لتأييد اتجـــاهات معادية للغرب فىالشرق الاوسط عززت أيضـــا صـــلاتها بمنظمة التحرير الفلسطينية والجبهة الوطنية لتحرير عمان والخليج العربى . وكما حدث تماما بالنسبة للعراق وليبيا فقد رحبت المنظمات بالدعم السوفيتى فى وقت كانتـــا تواجهان فيه تحديات خطيرة ـ جبهة التحرير الفلسطينية التى سحقتها قوات الملك حسين فى سبتمبر ١٩٧٠ ويوليو ١٩٧١ ، والجبهة الوطنية لتحرير عمان والخليج العـــربى التى واجهتها مقاومة متزايدة من جانب سلطان عمان .. ونظرا لان زعيمى كلتا المنظمتين كانا يرفعان شعارات معادية للغرب فقد أصبحا زوارا لموسكو يكثرون من التردد عليها ، وتمت مكافأتهما بمنحهما دعما اقتصاديا وعسكريا وطبيا فى مقابل الدعوة للمخططالسوفيتى فى قضـــايا الشرق الاوسط .

وتمكنت الزعامة السوفيتية ، أثناء قيامها بجهـــد لاصلاح مركزها المتدهـور فى الشرق الاوسط ، من عقـد صلات أقوى وأوثق بالعراق وليبيا ومنظمـــة التحـرير الفلسطينية والجبهة الوطنية لتحرير عمان والخليج العربى فى نفس الوقت الذى عمـدت فيـه الى تغيـير سـياستها ازاء الاحزاب الشيوعية العربية . كما سعى الروس الى تحقيق أهدافهم باستغلال الصراع العربى ـ الاسرائيلى على نحو انتهازى اذ منحت الهجمات الاسرائيليـة على قواعـد الفلسطينيين فى لبنان وسوريا ـ عقب حـادثة الرياضيين

الاسرائيليين بميـــونيخ فى سبتمبر سنة ١٩٧٢ ــ فرصـــة للاتحاد السوفيتى لابراز تأييده للقضية العربية فى الوقت الذى يقوض فيه عن عمد مركز الولايات المتحدة التى سعت الزعامة السوفيتية للربط بينها وبين سياسات اسرائيل ، وبذلك أصبح الاتحاد السوفيتى عاملا هاما بالنسبة للزعماء العرب فى ضوء تأييد الولايات المتحدة لاسرائيل . وفى نفس الوقت أصبح العجز فى البترول يمثـــل مشكلة حادة فى الولايات المتحدة التى أصبحت لاول مرة عرضـــة للضغط البترولى العربى . ولقـــد اتبعت روسيا هــذه السياسة المزدوجة الخاصة بربط الولايات المتحدة بتصرفات اسرائيل مثل قتل ثلاثة من زعماء منظمـــة التحـــرير الفلسطينية فى بيروت ومثل الحث على استخدام سلاح البترول العـــربى ضد الولايات المتحدة خلال الحرب العربية ــ الاسرائيلية فى عام ١٩٧٣ ، وهى الحرب التى اعتبرتها الزعامة السوفيتية فرصة لاستعادة مكانتها المفقودة فى الشرق الاوسط وأيضـــا لتوجيه ضربة حاسمة كامنة ضد مصالح الولايات المتحـــدة فى المنطقة .

واذا اتجه المرء لتقييم السوفيت خلال حرب اكتوبر ستذهله حقيقة ان نزعتهم الانتهازية تشابهت من عدة أوجه مع سلوك شركات البترول الامريكية خـــلال أزمة الطـــاقة الامريكية . ففى الوقت الذى ربما تتعمد فيـــه شركات البترول اصطناع أزمة الطاقة لم تتوان لحظة فى استغلالها لمصلحتها بسرعة بالغـــة . وسيبدو الموقف بالنسبة لدور

السوفييت فى حرب أكتوبر مشابها جدا ، ففى الوقت الذى ربما لم يؤيد فيه الروس بفاعلية قرار مصر بالدخول فى حرب ضد اسرائيل ، وفى الوقت الذى كان فيه الزعماء السوفيت مترددين للغاية فى تأييدهم العرب خلال الايام الاولى للقتال فقد سارعوا الى القيام بمحاولة استغلال نجاح العرب العسكرى ضد اسرائيل والتوترات داخل حلف شمال الاطلنطى والسوق الاوربية المشتركة نتيجة الحرب والحظر المفروض على البترول . ومن سوء حظ الروس انمكاسبهم من الحربعابرة فى معظمها ، فسرعان ما تفككت عرى الوحدة المعادية للامبريالية) بين العرب ، وبرزت الولايات المتحدة بعد الحرب بعدة أشهر وهى فى وضع أفضل فى الشرق الأوسط مما كانت عليه قبل قيام هذه الحرب . أضف الى ذلك ان الحرب قد عززت مركز الرئيس أنور السادات على المستوى المحلى ، وسرعان ماعاد الرئيس السادات الى اتباع سياسته السابقة الخاصة بالتحرك لتحسن العلاقات الاقتصادية والسياسية مع الغرب . ومع اقتران هذا الموقف بصلاته الوثيقة على نحو مطرد مع السعودية الغنية بالبترول التى تحركت الى استعادة العلاقات مع الولايات المتحدة بعد الحرب ، فقد تم خلق محور مصرى سعودى فى الشرق الاوسط كان أكثر ميلا الى الولايات المتحدة منه الى الاتحاد السوفيتى . وينطوى هذا الانحياز على امكانية اجتذاب دول اخرى ، وهو تطور سيؤدى الى المزيد من التآكل فى

وضع السوفييت فى المنطقة . وزيادة على هذا ، ففى الوقت الذى اندفعت فيه أوربا الغربية واليابان المتعطشة للبترول لعقد اتفاقيات اقتصادية وعسكرية على المدى البعيد مع الدول العربية المنتجة للبترول وايران ثارت صعوبات أكبر امام صانعى السياسة السوفيتية لانه يتعين على الاتحاد السوفيتى الان مسايرة المنافسة من جانب أوروبا الغربية واليابان فضلا عن الامريكيين فى المنطقة . وهكذا تمكنت الدول العربية من الوقيعة بين الدول العظمى جميعا ، ومن ثم أدت الى تحديد قدر من النفوذ الذى يمكن لاية قوى ممارسته ، ومن بينها الاتحاد السوفيتى .

واذا ظل الوضع فى العالم العربى يتطور على هذا النسق ، فقد يجد الزعماء السوفيت ما يغريهم على حث دول عربية بعينها مثل سوريا الى اللجوء للحرب مرة أخرى . وربما يفعل نظام الاسد ذلك ، وقد يتمثل منطق السوفيت فى أن الحرب ستمتد لدول عربية أخرى مما سيحمل زعماءها على الانضمام لسوريا فى معركتها ضد اسرائيل تحت ضغط الرأى العام الشعبى والذكريات عن نجاحات العرب فى المراحل الاولى من حرب أكتوبر . ومع افتراض ان الولايات المتحدة ستؤيد اسرائيل ثانية فسوف يجعل ذلك الاتحاد السوفيتى مرة أخرى عاملا هاما فى العالم العربى نظراللحاجة الى امدادات ضخمة من الاسلحة لخوض غمار حرب على غرار حرب أكتوبر فى الوقت الذى يقوض فيه ثانية مركز الامريكيين .

ومع هذا فان اتباع سياسة سوفيتية تتمثل فى حث العرب على استئناف الحرب أمر له جوانب من القصور ، ففى المقام الاول فان مصر فى ظل زعامة الرئيس السادات على الاقل ، لا ترغب الدخول فى حرب بناء على أمر من سوريا (أو السوفيت) مثلما رفضت دخولها فى ديسمبر سنة ١٩٧٢ حينما اشتبكت سوريا واسرائيل فى معارك ضارية بالدبابات والمدفعية . وثانيا قد يكون من الامور الاكثر صعوبة على سوريا (أو الاتحاد السوفيتى) تعبئة سلاح البترول السعودى تماما مثل عجزها عن اقناعهم بمواصلة فرض الحظر البترولى بالرغم من استمرار حرب الاستنزاف فى (مرتفعات الجولان) . وفى النهاية قد تقضى دفعة سوفيتية واضحة للعرب لحثهم على العودة الى الحرب على بقايا الوفاق السوفيتى ـ الامريكى الذى اضعفته بشدة حرب أكتوبر وجهود السوفيت للابقاء على الحظر البترولى ضد الولايات المتحدة . ومن ثم فانه بالرغم من الصعوبات البالغة فى التكهن بما سيحدث بالنسبة لاقليم متقلب مثل الشرق الاوسط قد يقرر الزعماء السوفيت الموافقة على اقرار اتفاقية سلام فى الشرق الاوسط تفضى الى اقامة دولة عربية فلسطينية (على الضفة الغربية وقطاع غزة) يمكنهم ان يمارسوا نفوذهم منها .

وقد يرى السوفيت أن نظم الحكم الملكية المحافظة فى السعودية والكويت ودولة الامارات العربية ستستبدل فى القريب بنظم حكم راديكالية على غرار النظام العراقى

واليمن الجنوبى والتى ستطلب التأييد من الاتحاد السوفيتى . وان الرئيس السادات قد يتحول ثانية صوب الاتحاد السوفيتى طلبا للحصول على الاسلحة والعودة للحرب بغية استعادة الاراضى من اسرائيل . وربما ترى الزعامة السوفيتية أيضا ان الصراع على تحديد سعر مرتفع للبترول قد يحدث انقساما بين الدول العربية المحافظة المنتجة للبترول والولايات المتحدة . وهذا تطور يمكن ان يدفعهم الى أن يولوا وجههم شطر الاتحاد السوفيتى طلبا للحصول على عونه وحمايته . ومثل هذه السياسة الخاصة بالترقب اليقظ واستغلال التطورات الاقليمية بدلا من التشجيع على نشوب حرب جديدة أقل ضررا أيضا بالنسبة للعلاقات السوفيتية الامريكية . ومع هذا فانه يمكن للمرء أن يشك فى قيمة مثل هذا النوع من سياسة (الترقب اليقظ) لان كلا من اليمن الجنوبية والعراق قد أستغل فى الماضى علاقته بالاتحاد السوفيتى لتحقيق أهداف لا تتفق بوجه خاص وهو الزعامة السوفيتية ، ومن المحتمل أيضا أن يتم حل مشكلة أسعار البترول دون أن يترتب عنها حدوث تمزق فى العلاقات العربية ـ الامريكية ، وان الاتجاهات الموالية الامريكية ستستمر ولا سيما اذا تحقق اتفاق سلام عربى ـ اسرائيلى .. ومع هذا فاننا اذا أخذنا فى الاعتبار الهدف السوفيتى الشامل الخاص بطرد النفوذ الغربى من الشرق الاوسط . فانه يبدو ان الزعامة السوفيتية على استعداد لمواصلة

تزويد نظم حكم عربية معارضة فى احيان كثيرة للاتحـاد السوفيتى بكميات ضخمةمن المعونة العسكرية والاقتصادية والدعم السياسى أيضـا ، وذلك على أمل التشجيع على اثارة الاتجاهات المناهضة للغرب فى المنطقة . وفى الوقت الذى لا يزال فيه نجاح هذه الاستراتيجية فى نهاية الامر موضع شك شديد ، لاسيما وان الروس كانوا فى نوفمبر سنة ١٩٧٤ أبعد عن تحقيق هدفهم مما كانوا عليه فى وقت وفاة ناصر ، فليست هنـاك أية دلائل تدل على ان الزعامة السوفيتية قد تخلت عن جهودها الخاصة بزيادة النفوذ السوفيتى فى منطقة الشرق الاوسط فى الوقت الذى تسعى فيه لمحو نفوذ الولايات المتحدة والحلفاء الغربيين .

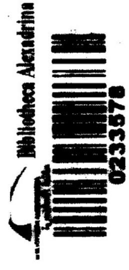
ويبدو أن الزعمـاء السوفييت على استعداد لدفع التكاليف التى ينطوى عليها انتهاج مثل هـذه السياسة ، لانهم اتخذوا القـرار الرئيسى الذى يتمثـل فى أن الشرق الاوسط منطقة ذات أهمية قصوى للاتحاد السوفيتى .

□ * □

مطابع شركة الاعلانات الشرقية



تصدر عن
مركز النيل للإعلام والتعليم



الثمن